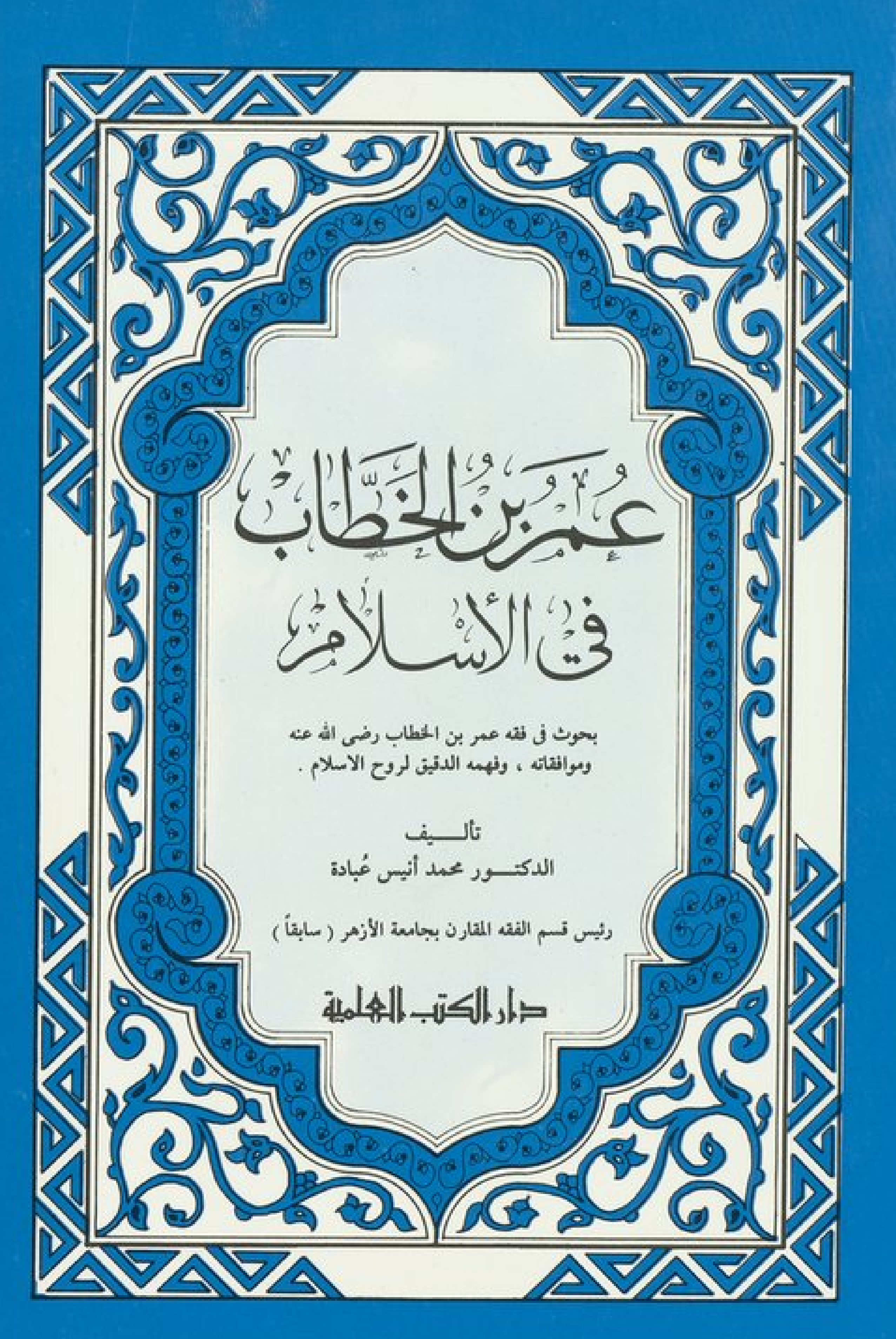


عمر بن الخطاب في الإسلام

بحوث فى فقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه
وموافقاته ، وفهمه الدقيق لروح الاسلام .

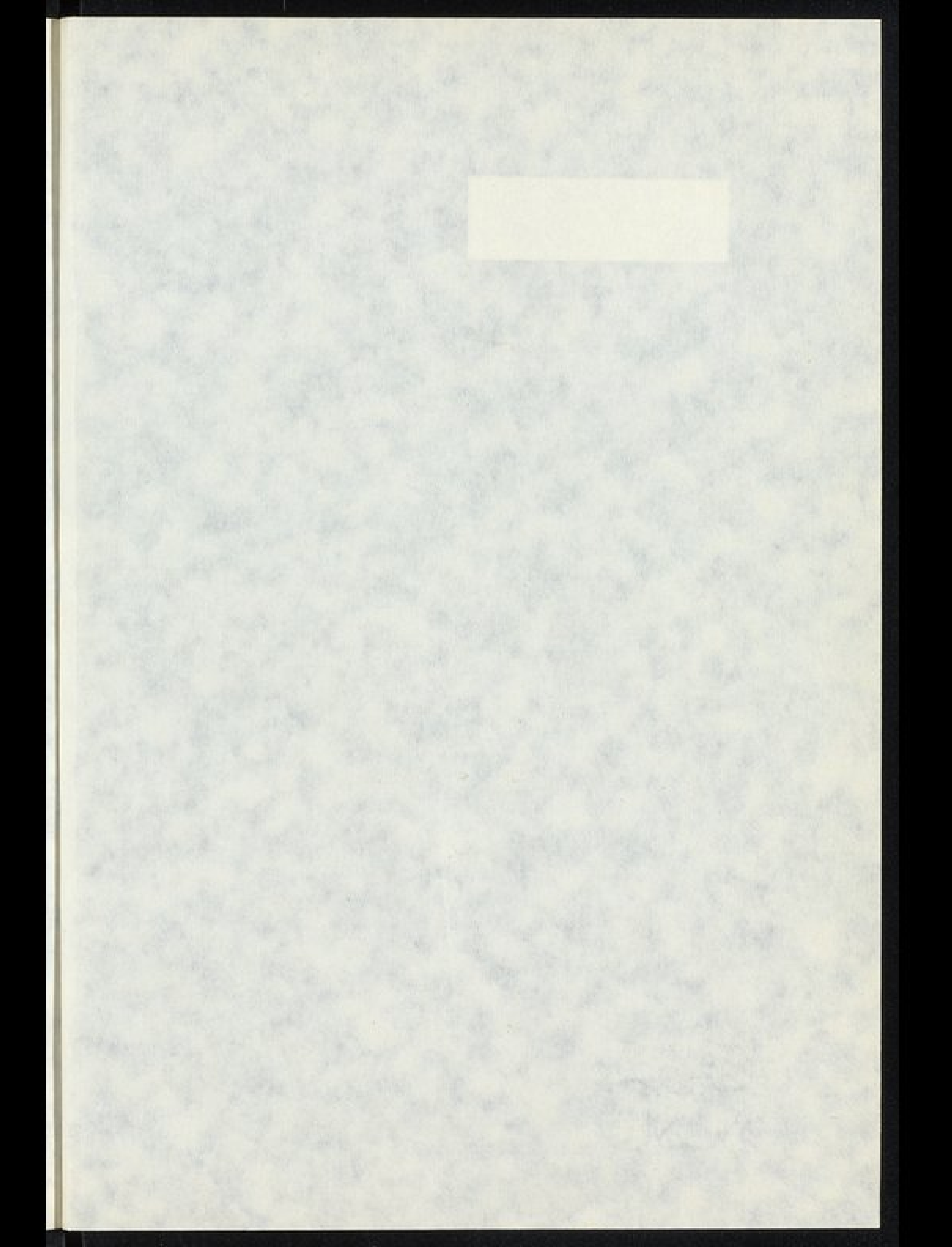
تألـيف
الدكتـور محمد أنيس عُبادة

رئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر (سابقاً)

دار الكتب العلمية


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.

عمر بن الخطاب
في الإسلام



عُمَرُ بنُ الخَطَّاب فِي الإسْلام

بحوث فى فقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه
وموافقاته ، وفهمه الدقيق لروح الاسلام .

تأليـــف

الدكتـــور محمد أنيس عُبادة

رئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر (سابقاً)




CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
ITHACA, N.Y.

التقدمة

عمر بن الخطاب فى الإسلام

عاش عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمساً وستين سنة ، أمضى منها في الجاهلية ثلاثين سنة ، لا نعرف عنه فيها مالا أنه عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، من بني عدي ، وأمضى نصفها الآخر في نور الإسلام ، وأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب أحد عظماء الإسلام ، وفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ودحر كسرى وقيصر عن عروشهما ، وأسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتها وتفوقها في الإدارة وحسن النظام ، فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذى لايزال فيه المثل السائر .

وكانت نقطة التحول هى اللحظة التى قال فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

لقد كان عمر بن الخطاب أحد الذخائر البشرية ، وهى أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها ، ولا يعرف أحد محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض ، فأوجد فيها الإسلام الإيمان بالعقيدة ، وبعث فيها الروح الإسلامية الجديدة ، فأشعل مواهبها ، فتحولت هذه القلوب التى كانت ميتة لا تتحرك ، وأصبحت حية تملي على العالم إرادتها ، وكأنما كان أعمى لايبصر الطريق ، فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب من جليل الصفات وعظيم المواهب ، فكان اسمه ولا يزال يتردد في إعجاب وإكبار ، فإذا ذُكر العدل المطلق ذُكر عدل عمر ، وإذا ذُكرت النزاهة ذُكرت نزاهة عمر ، وإذا ذُكر العلم والفقه في الدين ذُكر فقه عمر ودينه .

وفى عهـد عمـر وافقت حالة أعلام المسلمين حيثما ساروا ، ففتحوا المدائن وفتحـوا بيت المقدس ، ثم تخطوا العراق إلى فارس ، وتخطوا الشام إلى مصر ، فاستقر لهم الأمر فيهما ، وشاد عمر بن الخطاب الإمبراطورية الإسلامية في عشر سنوات لتستقر في العالم ، وتوجه حضارته الأجيال والقرون .

وقيام الإسلام أول عوامل خلود عمر بن الخطاب وأقواها ، فالإسلام هو الذي وحـد العرب بعد شتات ، وجعل من قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة ؛ لقد كان العـرب قبل إسلامهم ضعافاً أمام الفرس والروم ، وكانت بلادهم مناطق نفوذ لكسرى ، وقيصر ، فلما أسلمـوا أسرع هذا النفوذ إلى الزوال عن شبه الجزيرة كلها ، لأنه الإسلام أنشأ المسلمين نشأة جديدة ، وبث فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً ، ذلـك أنـه اقتحم على نفـوسهم منـاطق عقـائدها وعباداتها ، واتصل بوجدانهم في صميمه ، فألقى فيه بذرة التوحيد ، صافية الجوهر ، نقية من كل شائبة ، لبسيطة كل البساطة ، فتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية ، وشعر كل واحد منهم بأنه لا حجاب بينه وبين الله ما عمل صالحاً وأجاب داعي الله .

كان عمر قبل الإسلام رجلاً عادياً مثل ملايين الناس الذين يعيشون ويموتون فلا يحس أحد بحياتهم ، ولا يأسى لموتهم ، فصار عمر في الإسلام العبقري الذي أتعب سرد مناقبه ومزاياه المؤرخين .

لقد خرج عمر بن الخطاب يريد قتل محمد ﷺ ، وذلك عندما تشاورت قريش في أمر النبي ﷺ ، فقالوا : أي رجل يقتل محمداً ؟ ، فقالت عمر بن الخطاب : أنا لها ، فقالوا : أنت لها ياعمر .

خرج في الهـاجرة ، في يوم شديد الحر ، متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه فيهم : أبو بكر ، وعلى ، وحمزة رضي الله عنهم في رجال من المسلمين بدار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنهم فى أسفل الصفا .

فلقيه نعيم بن عبد الله النحام . فقال : أين تريد ياعمر ؟ قال : أريد هذا الصـابيء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله ! قال نعيم : لبئس الممشى مشيت ياعمر ، ولقد غرتك والله نفسك من نفسك ، ففرطت وأردت هلكة بني عدي ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟

فتحاوروا حتى علت أصواتهما ، فقال عمر : إني لأظنك قد صبوت ، ولو أعلم

ذلك لبدأت بك ، فلما رأى النحام أنه غير منته قال : فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل من المسلمين أسراً ، فكان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند رجل به قوة وسعة من المال ، فيكونان معه ويصيبان من فضل طعامه ، ويجعل منهم حلقات ، فمنى حفظ شيئاً من القرآن عَلَّم مَنْ لم يحفظ ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة ، وحلقات تعليم .

وكان ممن أسلم خته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ، وكان زيد ابن عم عمر ، فكانا في أسرة واحدة مع نعيم بن عبد الله النحام من بني عدي أيضاً ، وكان معلمهم خباب بن الأرت رضي الله عنه .

فلما سمع عمر أن أخته وزوجها قد أسلما احتلمه الغضب ، فذهب إليهم ، فلما نقر على الباب قالوا : من هذا ؟ قال : ابن الخطاب . وكانوا يقرأون كتاباً في أيديهم ، فلما سمعوا حسن عمر ، قاموا مبادرين فاختبأوا ونسوا الصحيفة على حالها .
فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر فى وجهه ، فخبأت الصحيفة تحت فخذها ، قال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عدكم ؟ فقالا : ماعدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما ، فقال له ختنه : أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه سعيد وبطش بلحيته فتواثبا ، وكان عمر قوياً شديداً فضرب بسعيد الأرض ، ووطئه وطئاً ثم جلس على صدره ، فجاءت أخته فدفعته على زوجها ، فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها ، فقالت وهي غضبي : ياعدو الله ، أتضربني على أن أوحد الله ؟ قال : نعم ، قالت : ما كنت فاعلاً فافعل ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، لقد أسلمنا على رغم أنفك .

فلما سمعها عمر ندم ، وقام عن صدر زوجها ، فقعد ، ثم قال : أعطوني هذه الصحيفة التي عندكم فأقرأها ـ وكان عمر يقرأ الكتب ـ فقال أخته : لا أفعل . قال : ويحكِ قد وقع في قلبي ما قلتِ ، فأعطينيها أنظر اليها ، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تحرزيها حيث شئت . قالت : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل ، أو توضأ ، فخرج عمر ليغتسل وخرج إليها خباب ، فقال : أتدفعين كتاب الله إلى عمر وهو كافر ؟ قالت : نعم ، إني لأرجو أن يهدي الله أخي ، فدخل خباب البيت ، وجاء عمر فدفعت إليه الصحيفة ، وكان فيها « طه » وسور أخرى ، فقرأ فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم) .

فلما مر بالرحمن الرحيم ذعر ، فألقى الصحيفة من يده ، فرجع إلى نفسه فأخذها فإذا فيها :

(سبح لله ماق السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور . آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم كن كنتم مؤمنين) .

فجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر ، وكان في الصحيفة أيضاً سورة « طه » و « وإذا السماء كورت » ، ويروى أنه لما قرأ سورة طه عظمت في صدره فقال : من هذا فرت قريش ؟ ثم قرأ :

إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

قال : ينبغى لمن يقول هذا أن لا يعبد معه غيره . دلوني على محمد .

في هذه اللحظة تحول عمر بن الخطاب ، من ظلام الخمول الى نور الإسلام ، ثم كان له بعد ذلك الكبير في توجيه ما تم من تطور في الحياة الإجتماعية للمسلمين ، وكان لإجتهاده رأيه أكبر الأثر في هذا الأمر ، كما كان أكبر الأثر في غيره من أمور المسلمين .

لقد نزل فيه أو بسببه بعض آيات من القرآن الكريم :

رُوى عن عطاء في قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) قال : نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وجماعة آخرين ذكرهم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (ونزعنا ماق صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا ومالنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بها كنتم تعملون)

قال : نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وآخرين ذكرهم .

وعن الضحاك في قوله تعالى : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) قال : هم ثمانية : أبو بكر ، وعليّ ، وزيد ، وعثمان ، وطلحة والزبير ، وسعد ، وحمزة ، وعمر تاسعهم ألحقه الله تعالى بهم بما عرف من صدق نيته .

أما موافقاته رضي الله عنه فقد قال عمر : « وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفى أسارى بدر » .

وفي هذا الكتاب : عمر بن الخطاب في الإسلام ؛ سنرى كل هذه الموافقات مشروحة ومفصلة ، ومنها موافقته في مقام إبراهيم ، في شأن اتخاذه مصلى ، وموافقته في الحجاب ، ونزول آية الحجاب قال عبد الله بن مسعود : أمر عمر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن ، فقالت له زينب ، وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا ؟ فأنزل الله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعاً فاسئلوهن من وراء حجاب) .

ومنها موافقته في أسرى بدر .
وموافقته في تحريم الخمر .
وموافقته فى ترك الصلاة على المنافقين .

وموافقته على الإستئذان ، وموافقته في الأذان ، وموافقات أخرى منها قوله تعالى : (ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) بكى عمر عندها وقال : يارسول الله ! وقليل من الآخرين ؟ آمنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقناه ومن ينجو منا قليل ؟ فأنزل الله تعالى : (وثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) .

وعن علي أن عمر بن الخطاب انطلق إلى اليهود فقال : إنى أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجدون وصف محمد في كتابكم ؟

قالوا : نعم ، قال : وما يمنعك من اتباعه ؟

قالوا : إن الله لم يبعث رسولاً إلا كان له من الملائكة كفيل ، وإن جبريل هو الذي يكفل محمداً وهو الذي يأتيه ، وهو عدونا من الملائكة ، وميكائيل سلمنا ، فلو كان هو الذي يأتيه لاتبعناه .

قال : فإني أشهد أنه ما كان ميكائيل ليعادي جبريل ، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل .

قال : فمر به النبي ﷺ فقال : هذا صاحبك ياابن الخطاب .

فقام إليه وقد أنزل الله تعالى عليه : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو الكافرين) .

لقد كان عمر بن الخطاب أفضل الناس بعد أبي بكر : قال عمرو بن العاص : بعثني النبي صلى الله عليه وسلم بجيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أيّ الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، فقلت : من الرجال ؟ فقال : أبوها ، قلت : ثم مَنْ ؟ قال : ثم عمر بن الخطاب ، فعد رجالاً .

وهو أحد المبشرين بالجنة ، وأشدهم في دين الله ، وقصره في الجنة ، وقد أكرمه الله سبحانه وتعالى بالشهادة ، وجعل الله الحق على لسانه وقلبه ، وكان الشيطان يخاف منه ، وهو أحد المحدثين العلماء ، بينه وبين الفتنة باب مغلق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لا أدري ما بقائي فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر .

وهو سيد كهول أهل الجنة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : لم أر عبقرياً يفرى فريه .

إن الفقه الإسلامى مدين باجتهاد عمر بما لايقل عن السياسة الإسلامية بحسن رأيه ، وصدق إيمانه وعزمه ، لقد قرر مباديء وآراءاً في الفقه أخذ بها الذين جاءوا من بعده ، وعدوا صدورها عنه حجة على صحتها . وكثير من هذه المبادىء خطير الأثر جزيله ، وهو لذلك باق إلى اليوم يطبق في الفقه الإسلامي وفى غير الفقه الإسلامي من الشرائع .

وقد واجه عمر بن الخطاب الشيء الكثير من مشاكل الميراث ، وصادف كثيراً من التطورات التى حدثت في المجتمع الجديد التى لم يرد فيها نص صريح في

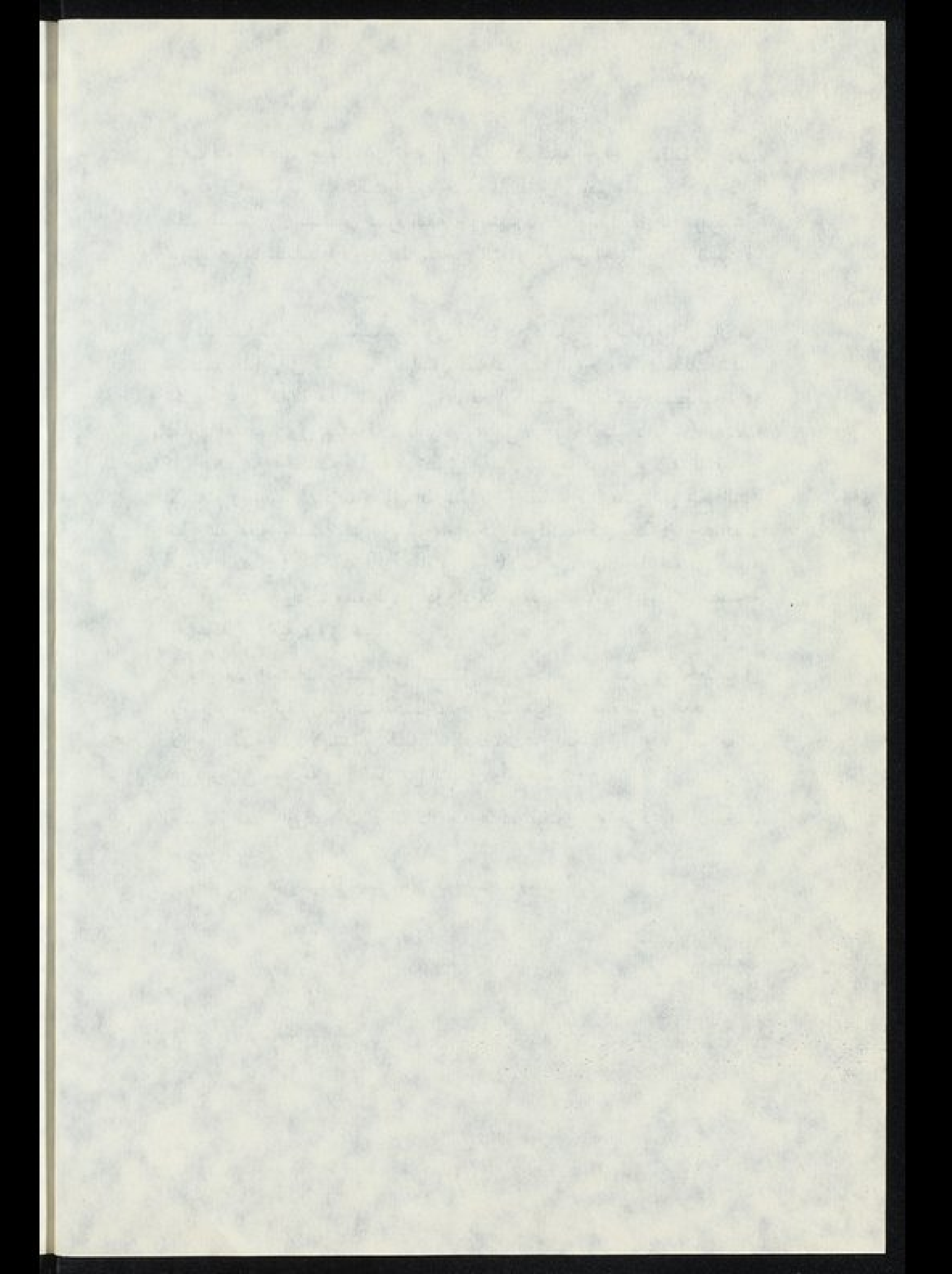
كتاب الله ، فكأن أجتهاده على تعبير أبي يوسف في كتابه الخراج : توفيقاً من الله ، كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد .

لقد كان عمر بن الخطاب من أقوى لناس إدراكاً لروح الإسلام ، كما كان من أحسنهم علماً بما فى الحياة من عوامل تضعف هذه الروح ، وكأن لذلك شديد الحرص على مقاومة هذه العوامل ، والواقع أن النفس الإنسانية تضطرب ، في تطلعها للسمو ، وفي تهيئتها للإنحدار بين عوامل لا قبل لها أكثر الأمر بها ، ولذلك كان عمر بن الخطاب صارماً في تطبيق الحق ، حازماً كل لحزم لأنه القوة روح الإسلام وجوهره ، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب كان يسير على نهج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على نهج أبي بكر ، وكأن حكيماً يقظاً في اجتهاده ، ويرجع الفضل في حكمته إلى أنه امثل روح الإسلام ، كما أوحاه الله الى رسوله أدق الإمتثال ، وأدرك هذه الروح أدق إدراك ، ولذلك كان اجتهاده في مصلحة الجماعة الإسلامية ، وفي سبيل الحق .

وفي هذا الكتاب حشد من المسائل التي اجتهد فيها عمر بن الخطاب في الإسلام ، متناثرة في طيات الكتب ، حرصت على جمع هذه الثروة العظيمة من الآراء الفقهية التى لايستغنى عنها العلماء فضلاً عن المتعلمين ، وقد جمعوا ما أثر عن غيره ممن هو دونه في العمل من التابعين وأتباعهم .

رحم الله عمر ، ورضي عنه ، إنه كان من عباده المؤمنين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



أول لحظات إسلام عمر

وابتدأ إسلام المسلم العظيم عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام تحقيقاً لدعوة النبى ﷺ . وليعز رب الاسلام عبده عمر بن الخطاب بلسانه هو هداية إليه وسكينة له بالتدبر والتأمل فيها أمر الله .

فدخل عمر بيت فاطمة (أخت عمر) وزوجها وابن عم سعيد بن زيد ، وكان فيه خباب حامل الرؤيا المباركة للرسول الكريم .

وبعـد نقاش وسؤال ثم إيذاء وافتراس ، ثم سكينة هبت ريحها فمست شغاف القلب من عمر . وهكذا شأن الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وتكلم عمر بلسان بدت فيه روحانية الاسلام .

وبلسـان المتحرك وبيد اهتزت هيبة للقرآن وسكينة لمقام كريم بدت لحظتها بركات خاتم المرسلين وردد صداها هيبة أخرى خلفت فى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ووزير خاتم النبيين ، وامتدت على الدهر حتى أحاطت بابن الخطاب واتصلت بالدرة التى طالما أيقظ بها عمر الغافلين وأيقظ النائمين ونبه الظالمين وأحيا روح المظلومين وبعد تردد وهجوم من عمر واشتراط من بنت الخطاب ألا يمس الآيات إلا المتطهرين .

وقرأ عمر : بسم الله الرحمن الرحيم « طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » . [طه : ١ - ٣]

اختلف أهل العلم فى المراد من هذه الأسماء والحروف : فالأسماء مثل طه ـ ويس ، والحروف مثل حم ـ ألمر ـ ألم .

فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن هذا من الأسرار .

وعن ابن عباس : المعنى : يارجل ، ذكره البيهقى .

وقيل إن ذلك اسم من أسماء الله تعالى وأنه حلف به .

وعن ابن عباس إنه اسم للنبى ﷺ سماه الله به كما سماه محمد ، فقد روى عنه ﷺ أن الله تعالى سماه عشرة أسماء « لى عند ربى عشرة أسماء فيها طه ، يس » .

وقيل إن « طه » اسم للسورة ومفتاح لها .

وهو كما روى ، كلام مختصر أعطاه لرسوله وأعطاه بها العلم .

ومن غريب تفسير ذلك أنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها على معنى خاص اختلفوا فيه .

الطاء من طه يدل على شجرة ـ طوبى .

والهاء النار الهاوية .

وقد تعود العرب التعبير على الشىء كله بذكر بعضه . كما أقسم سبحانه بالجنة والنار .

وقيل إن الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب . والهاء افتتاح اسمه هاد .

وقيل : الطاء : ياطامع الشفاعة للأمة . والهاء : هادى الخلق إلى الله .

وقيل إن معنى طه : طإ الأرض لأنه كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى الترويح بين قدميه فقيل له : طإ الأرض ـ يعنى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح .

قال الربيع بن أنس : كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل واحدة ورفع الأخرى فأنزل الله تعالى « طه » يعنى طإ الأرض يامحمد « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

وقال آخر : « طه » وفسر بأنه أمر بالوطء وأن النبى ﷺ كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فجاء أمره بأن يطأ الأرض بقدميه معاً وأن أصل كلمة « طه » طأ . فقلبت همزته هاء ـ والهاء للسكت .

وقال مجاهد : كان النبى ﷺ وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت هذه الآية .

وذكر الكلبى أن الوحى نزل بمكة : اجتهد فى العبادة ، فكثرت واشتدت عبادته فجعل يصلى الليل كله مدة من الزمن حتى نزلت الآية ، فأمره الله بأن يخفف عن نفسه فيصلى وينام فنسخت هذه الآية لأنه قيام الليل فكان بعد ذلك يصلى وينام .

ولذلك لما استقل الصحابة عبادتهم وحضروا إلى المسجد وأخذوا فى الصلاة خلف

الرسول ﷺ ، ولما أرادوا الاستمرار امتنع من الخروج لهم خشية أن يفرض ذلك ثم قد يعجزون فى المستقبل عن الأداء فينقطع عنهم الثواب « فوالله لا يمل الله حتى تملوا عن العمل » .

وقيل إن المشركين لما رأوا النبى ﷺ والصحابة يصلون كثيراً وما أنزل الله القرآن على محمد ليشقى . فأنزل الله تعالى « طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى » يعنى تتعب - يقول يارجل : ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . والمعنى : طأ الأرض برجليك فى صلواتك .

وفى وجه آخر بين قائله أن رسول الله ﷺ أسف على قريش فى كفرهم وتحسره على أن يؤمنوا . والمعنى أن النبى عليه الصلاة والسلام أسف وتحسر على قومه أنهم لم يستجيبوا لنداء النبى بأن يدخلوا فى الاسلام وينالوا ثواب الايمان ويكونوا من أهل الجنة والثواب ، فأخبره ربه بأنه بعد دعوته لهم وتبليغه أوامر الله ، لم يكتب عليك أن يصيروا مؤمنين مثل قوله « لعلك باخع نفسك على آثارهم » فما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أنك لم تقصر ولم تفرط فى أداء رسالتك .

وفسرت على وجه آخر حاصله : أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبى ﷺ : وإنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد رد ذلك بأن دين الاسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب فى درك كل سعادة .

وأما مافيه الكفرة فهو الشقاوه بعينها .

ولما صلى عليه الصلاة والسلام ووقف حتى تورمت قدماه قال له جبريل : ابق على نفسك فإن لها عليك حقاً . فالمعنى : إننا لم ننزل عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة وتذيقها المشقة الفادحة ومابعثت إلا بالحنيفية السمحة .

« إلا تذكرة لمن يخشى » معنى ذلك مع ما سبق إنا لم ننزل عليك القرآن لتشقى به ، ماأنزلناه إلا للتذكرة .

وقال العلماء : فى نظم القرآن تقديم وتأخير والتقدير : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى ولئلا تشقى به كل من عليها .

وجهنم على متن الريح - ومتن الريح على حجاب من الظلمة ، لا يعلم عظمه إلا الله تعالى وذلك الحجاب على الثرى ، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » أى إنه تعالى يعلم السر فى خفاء وأخفى من السر ماخفى ، ماأضمر فى نفسه مما لم يحدث به غيره .

وعنه السر حديث نفسك ، وأخفى من السر ماستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ، أنت تعلم ماتسر به نفسك اليوم ولا تعلم ماتسر به غداً ، والله يعلم ماأسررت اليوم وماتسره غداً . والمعنى : الله يعلم السر وأخفى من السر .

وقال ابن عباس أيضاً : السر ماأسر ابن آدم فى نفسه ، «وأخفى» ماخفى على ابن آدم مماهو فاعله وهو لا يعلمه ، فالله تعالى يعلم ذلك كله ـ وعلمه فيما مضى من ذلك ومايستقبل به علم واحد ، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة .

وقال قتادة وغيره :«والسِّرَّ» « ما أضمره الانسان فى نفسه ، وأخفى منه مالم يكن ولا أضمره أحد » .

وقال ابن زيد ، « السر » من الخلائق ، وأخفى منه سره عز وجل .

وقال الطبرى : إن الذى أخفى ماليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه .

« الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » وحد الله نفسه سبحانه ، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

فكبر ذلك عليهم ، فلما سمع أبو جهل النبى يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر ، وهو يدعو الله ويدعو الرحمن فأنزل الله تعالى « قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى » .

وجدث لحظة انفعال عمر بن الخطاب-بأسرار القرآن ومست قلبه أنوار وأضواء ـ قرآن الرب ورسوله ـ فى حنين القلب فكانت النصرة وكان أمير المؤمنين .

الله ياعمر أى رجل كنت ياابن الخطاب .

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » قال علماء العربية : يجوز أن يكون : تنزيل الكتاب ابتداء والخبر قول الله تعالى من الله العزيز العليم .

ويجوز أيضاً أن نقول « تنزيل الكتاب » خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : هذا تنزيل .

ويجوز أن يكون « حم » مبتدأ وتنزيل خبره .

والمعنى : إن القرآن أنزله الله تعالى فليس متقولاً على الله ، ولا هو مما يجوز أن يكذب به .

وقوله سبحانه :«غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » .

قال ابن عباس : غافر الذنب لمن قال : لا إله إلا الله ، وقابل التوب ممن قال : لا إله إلا الله ، شديد العقاب لمن لم يقل : لا إله إلا الله .

وقال ثابت البنانى : كنت إلى سرادق مصعب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب قال : فاستفتحت « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » فَمَرَّ عَلَىَّ رجل على دابة - فلما قلت : « غافر الذنب » قال : قل ياغافر الذنب : اغفر لى ذنبى .

فلما قلت : « قابل التوب » قال : قل : ياقابل التوب : تقبل توبتى .

فلما قلت : « شديد العقاب » قال : قل : ياشديد العقاب : اعف عنى .

فلما قلت : « ذى الطول » قال : قل ياذا الطول : طُل علَّ بخير .
فقمت إليه ، فأخذ ببصرى ، فالتفت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً .
وقال أهل الاشارات : « غافر الذنب » فضلاً ، « وقابل التوب » وعداً ، « شديد العقاب » عدلاً ، « لا إله إلا هو إليه المصير » فرداً .
وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه افتقد شخصاً ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له : تتابع فى الشراب .
فقال عمر لكاتبه : اكتب من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فلان : سلام عليك وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . بسم الله الرحمن الرحيم حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول . لا إله إلا هو إليه المصير . ثم ختم الكتاب ـ وقال للرسول الذى اختاره ليوصله ، تدفعه إليه حتى تـجد صاحبك .
ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة .
فلما وصلت الرسالة إليه ـ أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه . فلم يبرح يرددها حتى بكى ـ ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته .
فلما بلغ عمر توبته قال : هكذا فاصنعوا ـ إذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه .
والمعنى : يقبل الله فعله . وقيل : يقبل الله توباته من ذنوبه .
والطول معناه : الانعام والتفضل . تقول : اللهم طل علينا يعنى : أنعم يارب وتفضل .
ويقول ابن عباس : إن ذا الطول أي ذا النعم .
وقال مجاهد : أى ذو الغنى والسعة . قال تعالى « ومن لم يستطع منكم طولاً » .
يعنى : غنى وسعة .
وقال ابن عباس : ذى الطول أى ذى الغنى عمن لا يقول : لا إله إلا الله .
وقال عكرمة : معنى ذى الطول : ذى المن .
وقال آخر : ذى التفضل والمن عفو عن ذنب .
والتفضل : إحسان غير مستحق ـ والطول : أن يطول على غيره أو طالت مدة إنعامه .
« ولا إله إلا هو إليه المصير» يعنى المرجع .
وبما أثر عن عمر رضى الله عنه ، تحقق الرجاء فى وجه المولى سبحانه فلا يأس من

فضله ولا قنوط من نعمه ، فهو عز وجل غفار كريم فلا تيأس أيها العبد ، ولا تستكثر ذنبك على فضل مولاك . وبسط فضل الله عز وجل أمام عباد الله فتح لأبواب الرحمة الربانية ، ليكسب الإيمان عباده ، ويتقلب الانسان فى الفضل والرحمة والاحسان والمغفرة . رضى الله تعالى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

لقد ملأ الدنيا بالطائعين بالتيسير عليهم وتسهيل الطريق إلى الكريم ، وكأنه وهو يطلب من العباد أن ينقذوا من لعب به الشيطان ـ بالدعاء له لتحريره من سلطان هواه وسيطرة الشهوات عليه ، فذلك مؤمن عصى ربه . فمد يده برحمة الله وبركات قرآنه فانتشله بالآية وأنقذه بالدعاء ومن قبل ذلك ومن بعده قد أخذهم من عوج الطريق وعثرات السلوك إلى استقامة السيرة وحسن المسيرة .

ولقد سر عمر بهذا الذى قدر الله له السعادة فكتب أمير المؤمنين وعرف بسعة الرحمة ، ويسر الطاعة ، وقوة الأمل ، وصدق الرجاء . وقبل هذا أو بعده أسف عمر على قتل المرتد الذى أسرع به أصحابه قبل استتابته . وشأن عمر فى ولا يته إفساح الأمل وسعة الرجاء ، ورحمة الله قريب من المحسنين .

والشأن فى البشر مع ضعفه ويأسه حين يرى حقارة الدنيا وكذب الشيطان ـ أن يغمر الجاحد فضل الخالق الرحيم . الرازق الكريم . لعل الله تعالى يوفق إلى الهدى ويهدى إلى الحق . فتجدى الأوبة وتسعف الانابة فيسلم الكل الوجوه لرب العالمين .

ولذلك حذر عمر أباً من المسلمين عنده بُنيّة ـ استشاره فى كشف مخاطر ابنته لمن جاء يطلب يدها ـ مامضى من زلة تابت منها وأقلعت عنها ، وتوعده إن عمد إلى ماستره الله فكشفه وأمره بأن يزوجها زواج العفيفة المؤمنة .

ولأمير المؤمنين مواقف يحمدها الله له ـ فكم عمّر بيوتاً وطهر أسراً ونصح جمعاً ، وحل معضلات . وأرشد إلى ما غفل الناس عنه ـ فأعلم من أعلن أنه لا يحب أهله ، فأظهر سمو الرعاية والتذمم ، وذلك حبل يدوم وميثاق لا تضعف عقدته ولا تنحل صلته .

والحب هوى : وهو بين الزوجين بناء ، يضعفه سلطانه وينعدم فيهدم إذا كان وحده .

والرعاية والتذمم مكارم صلاتها دائمة . ومايدوم خير مما ينتهى . وسلطان الإيمان والاخاء باق . ويبقى الرباط معه فى قوته ومتانته .

ولقد تراكمت على عمر بركات القرآن ، ودخل فى النور بسلطانه

ولقد مضت فترة تأمله فيما يدعو إليه نبى الرحمة .

وكان تأثير القرآن على صناديد أم القرى فعالاً ـ حتى كانوا وهم فى غمرة الجحود

لا يستطيعون للقرآن بعدا ولا لتلاوته نكرا ولا للتعجب من سر بيانه ونفحات بلاغته إنكاراً .

ولا ريب فى أن عمر رضوان الله عليه كان إشراقة مضيئة من نوره أضاءت قلبه ، وملكت فؤاده ، وتحولت أجهزة الجسد الذى أبدع الله كيانه فى صورة أمير المؤمنين عمر - فأضحى عمر بكل مافيه إلى دار الأرقم على الصفا ليقابل الهادى معلنا فى صوت قوى شديد ، مرة مع خباب فى بيت فاطمة بنت الخطاب : دلنى ياخباب على محمد . وأجاب خباب . وسار عمر وهو لا يعلم عدد الخطوات إلى دار الأرقم ليجيب النبى : جئت يارسول الله لأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وابتدأ عمر حياته معزاً للاسلام ومعتزاً بالبيان وظل حياته مع القرآن يتلوه ويستنبط - يقرأ فيه ويجتهد ثم كما أشرق به قلبه فقد فتح عمر به قلوب الآدميين .

ولقد وجه القرآن عمر إلى الله .

ولقد أشار على أبى بكر بجمعه لما رأى من استشهاد حفاظه فخشى عليه الضياع بضياع حفاظه .

وقد أرشد المسلمين إلى كفايته وثروته حين رأى النبى فى احتضاره يريد أن يكتب لأمته مايريد . فقال لهم حسبنا كتاب الله .

وهنا كانت هديته إلى هذا الرجل ذى الشدة والبأس أن يطلب له حسن الحال وصدق الإيمان وصلاح الأمر كله .

فنبُض بالقرآن قلب الرجل وأقلع واستقام . رضى الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فلقد كان فضل ربه عليه أنه أعده ليكون أعظم أصحاب محمد ، لمحمد وللقرآن الذى أنزله الله على خاتم المرسلين وهدى به من الضلالة ونور به القلوب من الظلام . وطهر الأنفس من الرجس - وأزال بروحانيته جبال الدنس - فحدث به ملهماً واستنبط من معانيه معلماً ومتعلماً . وقد أعد الله عبده عمر بن الخطاب فكان قارئاً لكتابه ومدركاً لأحكامه ، وفاهماً لإشاراته ومتأدباً بآدابه . فرجع إليه فيما أشكل عليه - وابتدأ إيمانه منفعلاً بالقرآن وجهر بإسلامه مع النبى الهادى « فاصدع بماتؤمر » ولم يقبل إلا عزة القرآن بل لقد كانت دعوة خاتم المرسلين تنتظره ليعِزّ عمر الاسلام . وقد أعز - فأعلن وجهر - وضرب جوار الشرك بالجهاد - فخلعه عن جسده . فضرب وضرب وحقق المساواة بينه وبين بلال وصهيب وسلمان سابقى البشر فى سعيهم إلى البيت الحرام .

وهاجر فجاهر بهجرته وتلك هى العزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ثم توالت مواقع العزة من خلال المواقع التى كان يطل عليه منها الموت - وظل عمر فى عزة الاسلام قولاً وعملاً - ودعاءً ومناجاة حتى لقيه سبحانه عزيزاً كريماً .

الأسماء الحسنى

أسماء الله تعالى الحسنى : قال تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون » .

لماذا وصفت أسماؤه سبحانه بالحسنى :

حكوا فى ذلك أقوالاً خمسة [1] .

الأول : لما فيها من التعظيم فكل معنى معظم يسمى به المولى سبحانه وتعالى .

الثانى : لما وعد الله عليها من الثواب بدخول الجنة .

الثالث : لما مالت إليه القلوب من الكرم والرحمة .

الرابع : حسبها أنها لشرف العلم بها . فإن شرف العلم بشرف المعلوم . والبارىء عز وجل أشرف المعلومات . فالعلم بأسمائه أشرف العلوم .

الخامس : لمعرفة الواجب والجائز والمستحيل عليه فيأتى بكل ذلك على وجهه ويقرره فى نصابه ـ ومن حصل المعانى الحسنة فى أسماء الله تعالى نال الحسن من كل طريق وحصل له القطع بالتوفيق .

سبب نزول الآية : أما سبب نزول آية « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » فهو : أن المشركين سمعوا المسلمين يدعون الله مرة ، والرحمن مرة ،.والقادر بعدهما ، فقالوا :

---

١ ـ الإمام الحافظ « ابن العربى ص ٨٠٤ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ » .

أينهانا محمد عن الأصنام وهو يدعو آلهة كثيرة ؟ فنزلت « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » . يعنى أن هذه الأسماء لإله واحد وليست لآلهة متعددة .

أما نفس الأسماء المضافة إلى الله تعالى فقد قالوا إنها أسماؤه كلها :

١ ـ التى فيها التعظيم والإكبار .

٢ ـ أو إنها الأسماء التسعة والتسعين التى ورد بها الحديث الصحيح : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة » .

٣ ـ أو هى الأسماء التى دلت عليها أدلة الوحدانية قالوا : وهى سبعة تترتب على الوجود ـ العلم ـ القدرة ـ الإرادة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام ـ والحياة .

وكل إسم له سبحانه فهو راجع إلى هذه الأصول .

وقد رجح ابن العربى أنها التسعة والتسعون التى ذكرها النبى ﷺ فى الحديث الصحيح (مسلم ٢٠٦٣) .

ثم قال إن العلماء حلقوا عليها وساروا إليها وهم بين قاصد واقف دون المرام وجائر لا يلتفت إليه بكلام .

وذكر ممن وقف عليها الاسفراييني والطوسى ، وقد أسند الاسفراييني طريقه فوضح تحقيقه . وأما الثانى فقد تعلعل فيها فتزلزل عنها واختار طلب الأسماء الحسنى فى القرآن والسنة فهى مخبوءة فيهما ، ومثلها مثل أشياء كثيرة كان الإخفاء وسيلة إلى عمل كثير صالح .

ساعة الإجابة فى يوم الجمعة أخفاها فى اليوم كله .

ليلة القدر أخفاها لتطلب فى الشهر أو فى العشر الأواخر ـ الوتر ـ رغبة للعمل الكثير .

وكبائر الذنوب المطلوب اجتنابها رهبة من أيها .

فأسماؤه الحسنى خفيت ولم تتعين فى جملة أسماء كلية ، وإخفاء الكبائر ليتجنب العبد كل الذنوب .

والأسماء الحسنى فى الأسماء الكلية لندعوه سبحانه بجميعها فنصيب المقصود ضمنها الذى وعد الرسول بالعلم بما فيها .

الأسماء الحسنى فى القرآن : ففى سورة الفاتحة خمسة : الرب فى الاية : « الحمد لله رب العالمين » والرحمن الرحيم فى « الرحمن الرحيم » ومالك فى « مالك يوم الدين » .

وفى سورة البقرة ثلاثون اسماً هى : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، ذو الفضل العظيم الخ .

وفى سورة اقترب ثلاثة أسماء : الحاسب ، خير الوراثين ، الفاعل .
وفى سورة الحج اسم واحد : المكرم .
وفى سورة المؤمنين : أحسن الخالقين ، خير المنزلين .
وفى سورة النور اسمان : نور السموات والأرض ، المبين .
وفى سورة الفرقان اسم واحد : الهادى .
وفى سورة النمل اسم واحد : الكريم .
وفى سورة الروم اسم واحد : محيى الموتى .
وفى سورة سبأ اسم واحد : الفتاح .
وفى سورة فاطر اسم واحد : شكور .
وفى سورة ص اسم واحد : الغفار .
وفى سورة الزمر اسمان : سالم ، كاف .
وفى سورة المؤمنين : فيها خمسة أسماء : غافر الذنب ، قابل التوب ، ذي الطول ، رفيع الدرجات ، ذى العرش .
وفى سورة فصلت فيها اسم واحد : ذو عقاب .
وفى سورة الزخرف فيها اسم واحد : المبرم .
وفى سورة الدخان ثلاثة أسماء : المنذر ، المرسل ، المنتقم .
وفى سورة ق اسم واحد : أقرب إليه من حبل الوريد .
وفى سورة الذاريات خمسة أسماء : الموسع ، الماهد ، الرزاق ، ذو القوة ، المتين .
وفى سورة الطور اسم واحد : المليك المقتدر .
وفى سورة الرحمن اسم واحد : ذو الجلال الإكرام .
وفى سورة الواقعة ثلاثة أسماء : الخالق ، الزارع ، المنشىء .
وفى سورة الحديد أربعة : الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن .
وفى سورة المجادلة اسمان : رابع ثلاثة ، سادس خمسة .
وفى سورة الحشر ، وفيها ثمانية ، الجبار ، المتكبر ، البارىء ، المصور .. الخ .
وفى سورة المعارج : ذو المعارج .
وفى سورة المدثر اسم واحد : أهل التقوى وأهل المغفرة .
وفى سورة سبح اسم واحد : الأعلى .
وفى سورة القلم اسم واحد : الأكرم .
وفى سورة التوحيد اسمان : أحد ، صمد .
وقد زاد بعض علمائنا فيها : شىء ، موجود ، كائن ، ثابت ، نفس ، عين ،

ذات داع ، مستجيب ، مملى ، قائم ، متكلم ، مبق ، مفن ، غيور ، قاضى ، مقدر ، فرد ، مبل ، جاعل ، موجد ، مبدع ، دارىء .

وهذه هى الأسماء المعدودة بصفاتها قرآنا وسنة .

وفى الحديث المطلق أسماء غير ذلك كقولنا : الطيب ، السيد ، الطبيب ، وأعداد سواها .

وقال ابن العربى فى أحكام القرآن[1] قال : عددناها على ماورد فى الكتاب والسنة وذكره الأئمة فانتهت إلى ستة وأربعين ومائة .

---

١ - ابن العربى الامام الحافظ ص ٨٠٧ ، ٨٠٨ .

موافقات عمر للوحى

وأما موافقات عمر فقد ذكرها المؤلفون بأعداد متفاوتة ، ونص السيوطى أن الموافقات أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين .

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال : كان عمر يرى الرأى فينزل القرآن به .

وأخرج ابن عساكر عن على قال : إن فى القرآن لرأيا من رأى عمر .

وعن ابن عمر مرفوعاً : ماقال الناس فى شىء وقال عمر فيه إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر .

وأخرج الشيخان عن عمر قال : وافقت ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » ، وقلت يارسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ؟ فنزلت الآية فى الحجاب « ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . . « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » الأحزاب آية ٥٣ ، واجتمع نساء النبى فى الغيرة عليه فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً فنزلت الآية هكذا كما قال عمر .

وفى التهذيب للنووى : الثلاث (الحجاب والأسرى ومقام ابراهيم وزاد تحريم الخمر فزاد الخمر وهى مع ماتقوم الخامسة ، والحديث بها فى السنن ومستدرك الحاكم قوله « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » فأنزل المولى تحريمها .

وعن أنس بتخريج ابن أبى حاتم قال : قال عمر : آية « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » الآية ، لما نزلت قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت . فزاد هذا الأخير خصلة سادسة .

قال السيوطى : ووجدت فى كتاب فضائل الإمامين لأبى عبد الله الشيبانى قال : وافق عمر ربه فى واحد وعشرين موضعاً فذكرت الستة المذكورة فى هذه الأحاديث .

وزاد سابعاً : قصة عبد الله بن أبى قلت حديثها فى الصحيح عنه قال : لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه النبى فقمت حتى وقفت فى صدره فقلت يارسول الله أوعلى عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا فوالله ماكان إلا يسيراً حتى نزلت « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » الآية .

والثامن : « يسألونك عن الخمر » الآية .

وتاسعاً : « يأأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » الآية . قلت ، هما مع آية المائدة خصلة والثلاثة فى الحديث السابق .

وعاشراً : لما أكثر نبى الله الاستغفار لقوم قال عمر : « سواء عليهم » فأنزل الله « سواء عليهم استغفرت لهم » الآية . قلت : أخرجه الطبرانى عن ابن عباس .

الحادى عشر : لما استشار الرسول الصحابة فى الخروج إلى بدر أشار عمر بالخروج فنزلت الآية « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » .

الثانى عشر : لما استشار الصحابة فى قصة الإفك قال عمر : « من زوجكها يارسول الله ؟ قال : الله . قال أتظن أن ربك دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم » . فنزلت كذلك .

الثالث عشر : قصة الجماع فى الصيام ، جامع زوجته بعد الانتباه ، وكان ذلك محرماً أول الاسلام فنزل « أحل لكم ليلة الصيام الرفث » الآية . أخرجه أحمد فى المسند .

الرابع عشر : قول الله تعالى « من كان عدواً لجبريل » الآية . قلت أخرجه ابن جرير وغيره من عدة طرق وأقربها للموافقة ماأخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهودياً لقى عمر فقال : إن جبريل الذى يصدقه صاحبكم عدو لنا فقال عمر : « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » فنزلت على لسان عمر .

الخامس عشر : قول الله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون » الآية . قلت أخرج قصتها ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى الأسود قال : اختصم رجلان إلى النبى ﷺ

فقضى بينهما فقال الذى قضى عليه : ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل : قضى لى رسول الله ﷺ على هذا فقال : ردنا إلى عمر فقال : أكذلك قال ؟ قال : نعم فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فخرج إليهما مشتملاً على سيفه فضرب الذى قال : ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر فقال : يارسول الله قتل عمر والله صاحبى فقال : ماكنت أظن أن يجترىء على قتل مؤمن فأنزل الله « فلاوربك لا يؤمنون » الآية . فأهدر دم الرجل ، وبرىء عمر من قتله ، وله شاهد موصول أوردته فى التفسير المسند .

السادس عشر : الاستئذان فى الدخول . وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائمًا فقال : إن الله حرم الدخول . فنزلت الآية فى الاستئذان .

السابع عشر : القول فى اليهود أنهم قوم بهت .

الثامن عشر : قال تعالى « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » قلت أخرج قصتها ابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله .

مقدمة جمع القرآن

إن من يقرأ القرآن يناجى ربه بتلاوة كلامه . وطوبى لجوف يحمل كلام الله .
ومن أحب القرآن فقد أحب الله وأحب رسوله .

وقد وهب الله عمر بن الخطاب ملكة حفظ بها القرآن الكريم فقد أسلم ببركة القرآن . فقد حفظ صدر السورة العشرين من سور القرآن الكريم

وروى أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من القرآن الكريم .

فقيل له : إنها كانت مع فلان وقتل شهيداً يوم اليمامة فاسترجع . وعزم على جمعه فتكلم مع أبى بكر فاقتنع وأمرا زيد بن ثابت بهذه المهمة .

وكان هذا الجمع الأول الذى أشار به عمر على الصديق أصلاً رجعوا إليه فى نسخ المصاحف فى عهد عثمان حين اختلف المجاهدون فى القراءة . وكان لهذا أثر هام فى حفظ القرآن وسلامته من التحريف ولا تشوبه شائبة ـ وقد أعطى الله عمر هذه النعمة فحقق الله بمشورته على الصديق وعده عز وجل بحفظ كتابه وشريعته بقوله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » صدق الله العظيم .

الجمع الأول

جمع القرآن بمشورة عمر لأبى بكر

جاءت حادثة الردة ، وجحود الزكاة ، على ابي بكر رضي الله تعالى عنه وقد جاهد الصحابة بقيادة الخليفة الاول وانتصر الاسلام على يد الصديق رضى الله عنه ، وقد استشهد قراء القرآن الكريم حتى مات منهم نحو سبعين شهيداً .

وأحس عمر بخطورة الامر ـ بالنسبة لكتاب الله تعالى وهو أصل الشريعة والمصدر الاول لاحكامها ، وهو الذى دل على حجية الادلة كلها فأشار على ابى بكر بوجوب جمع القرآن وكتابته ليثبت في السطور كما وعته الصدور حفظاً وتلاوة .

وقال ابو بكر لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير .

واستمرت المشاورات وطالت المراجعة بين أبي بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبي بكر لكتابته كما قال عمر .

فأرسل ابو بكر إلى زيد بن ثابت . فحضر ثم قال له الصديق : إنك رجل شاب عاقل أمين لا نتهمك ـ كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ، فإن القتل قد استحر بالقراء ، واخشى أن يستحر الامر على ذلك فيضيع القرآن بضياع حفظته .

وقد راجعها زيد بن ثابت كما راجع ابو بكر عمر اول الأمر ثم شرح الله صدر زيد للذي شرح الله له صدر ابى بكر وعمر .

قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه على الحجارة ، والجلود ، والاكتاف وضم ذلك كله إلى بعض حتى تم الجمع .

قال زيد : ولم أجد آخر سورة التوبة « لقد جاءكم رسول الله من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

ولم يكتف زيد بحفظها ولا بحفظ العدد الكثير من الصحابة لها حتى وجدهما مكتوبتين عند خزيمة الانصاري .

وقد جاء بذلك حديث البخارى عن زيد ابن ثابت وهو :

حديث البخارى بجمع القرآن

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال .

أرسل إليَّ ابو بكر مقتل اهل اليمامة وعنده عمر فقال ابو بكر : إن عمر أتاني

فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بالناس ، وإني اخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني ارى ان تجمع القرآن .

قال ابو بكر : فقلت لعمر : كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر .

قال زيد : وعنده عمر جالس لايتكلم .

فقال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لانتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ماكان اثقل علي مما امروني به من جمع القرآن .

قلت كيف تفعلون فعلاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، فقال ابو بكر : هو والله خير- فلم ازل اراجعه حتى شرحه الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر .

قال زيد فقمت فتتبعت القران اجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الانصاري لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول الله من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

فلما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب ، كنت اسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم اجدها الا مع خزيمة الانصارى الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر » فالحقها في سورتها ، فكانت الصحف التى اجتمع فيها القرآن عند ابي بكر حتى توفاه الله .

ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر وهذا الحديث صحيح اجمعت الروايات على صحته .

خصوصية الامة بالقرآن

واسند الدارمي في مسنده عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والارض بألف عام . فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل هذا عليها ، وطوبى لاجوان تحمل وطوبى لالسنة تتكلم بهذا .

قال ابن فورك معنى قوله : إن الله تعالى قرأ طه ويس يعنى اظهر واسمع وافهم كلامه من اراد من خلقه من الملائكه في هذا الوقت .

والعرب تقول : قرأت الشيء إذا تتبعته ، وتقول ، ماقرأت هذه الناقة فى رحمها سلا قط - يعنى ما ظهر منها ولد ، وقراءته اسماعه وافهامه بعبارات يخلقها - وكتابة يحدثها وهو معنى القول : قرأنا كلام الله ومعنى الآية فاقرأوا ماتيسر من القرآن ، فاقرأوا ماتيسر منه .

ومن العلماء من قال : معنى قولنا قرأ تكلم به ، وهو مجاز كقولك : ذقت هذا القول ذواقاً يعنى اختبر ، ومنه قوله : « فأذاقها الله لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون » .

يعنى ابتلاهم الله تعالى فسمى ذلك ذواقاً ، والحقيقة أن الخوف لا يذاق لأنه حقيقة يكون بالقلب دون غيره من الجوارح .

اهمية مشورة عمر بجمع القرآن

إن القرآن الكريم هو المعجزة الدائمة لتصديق محمد ﷺ في دعوته إلى الدين الحق ونبوته الخاتمة للرسالات .

وقد تميزت رسالته بالدوام والعموم فكانت معجزة صدقه كذلك دائمة باقية عامة ، وقد وقف في عرفات في حجة الوداع ، فودع امته واشهد الجموع بعد أن زار الشهداء بأنه أدى الامانة وبلغ الرسالة وقال : إنكم مسؤلون عنى فماذا أنتم قائلون ؟ فقالوا نشهد بأنك بلغت واديت ، وهذه شهادة اصحابه الذين شاهدوه وحملوا النور بعده .

« بالنسبة للامة قال : فليبلغ الشاهد الغائب فقال بلغوا عني ولو آية وكان جمع القرآن وكتابته حفظاً له ، وقد استمر حفظه بكتابته وقراءته ، وترددت به الاصوات وادوه بالتواتر ، ولم تختلط به السنة فجودوه وجردوه مما يختلط به ، ولذلك لم يرض عمر بكتابة السنة مع كتاب الله .

فحفظ الله بالقرآن الدين ، وسلم من التحريف والتغير وسلمت الشريعة من ذلك بكتاب الله المحفوظ في الصدور المكتوب المجموع في السطور .

الجمع الثاني
جمع عثمان للقرآن الكريم

والسبب في هذا الجمع توحيد قراءات القرآن على مصحف واحد وهو الذي نزل به القرآن .

فالجمع الاول الذي اشار به عمر على ابي بكر رضى الله تعالى عنهم اجمعين كان لخوف عمر من ضياع القرآن بضياع حفظته الذين كانوا في الجهاد ضد المرتدين جاحدى الزكاة ، ومعهم مُدَّعوا النبوة .

فلقد استشهد كثير من قراء القرآن في موقعة اليمامة ، فلو استمر ذلك لضاع الحفاظ في المواقع فيضيع بضياعهم القرآن .

أما في عهد عثمان فإن الصحابة تفرقوا في البلاد وسكنوا الامصار وكانت لهجاتهم مختلفة في نطق بعض الكلمات .

وقد دخل في الإسلام قوم جدد من اهل البلاد المفتوحة فظن اهل كل مصر أن قراءة الصحابى الذي سكن بلدهم هي القراءة فلا يكون غيرها قرآناً ، وقد ظهر ذلك باختلاط اهل الشام باهل العراق اثناء فتح ارمنية واذربيجان . فقرأ كل واحد باللهجة التى لهم ، وتنازعوا فقال بعضهم لبعض قراءتى خير من قراءتك ورد الآخر بالعكس .

وكان حذيفة بن اليمان في هذه المهمة مع المجاهدين ، وشاهد ماوقع وحين رجع من المكان إلى المدينة قال لسعيد بن العاص اني قد سمعت في سفرى هذا امراً لئن ترك الناس عليه ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً فقال سعيد وماذاك ؟ قال حذيفة : رأيت اهل الشام حين قدموا علينا فرأيت اناساً من اهل حمص يزعمون لاناس من أهل الكوفه إنهم اصوب قراءة منهم . وأن المقداد بن الأسود اخذها عن رسول الله ﷺ ، ويقول الكوفيون ذلك ، وأنهم اخذوا قراءتهم عن ابن مسعود وسمعت قوماً من أهل دمشق يقولون لهم : لا ـ نحن اصوب منكم قراءة ويقول الأخرون مثل ذلك .

ولما رجع حذيفة الى الكوفة : دخل المسجد فحدث الناس بما سمع ، وحذرهم مما يخشاه عليهم فساعده على ذلك اصحاب رسول الله ﷺ وعامة التابعين .

وتعصب اهل الكوفة لقراءة عبد الله بن مسعود . واهل البصرة لقراءة ابي موسى الاشعرى ، واهل حمص لقراءة المقداد فغضب حذيفة وبعض الصحابة ، والتابعين وقالوا لهم : انما انتم اعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ .

واغلظ ابن مسعود القول لحذيفة فغضب وغضب سعيد بن العاص ودخل حذيفة إلى الخليفة عثمان بالمدينة فأخبره الخبر وقال : أنا النذير العريان فادركوا هذه الامة .

فجمع عثمان الصحابة ، وسمعوا من حذيفة فهالهم الامر وشق عليهم .

فطلب عثمان من ام المؤمنين حفصة بنت عمر ما كان عندها من الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر .

واحضرت الصحف من عند حفصة وامر عثمان زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول ﷺ وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف .

وقال الخليفة والصحابة لهؤلاء الاربعة الكتاب اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا .

فلما نسخوا مافي الصحف ردها عثمان الى حفصة وارسل إلى كل جهة مصحفاً ففرح الناس وعرفوا فضل هذا العمل العظيم الجليل ، وكان لعمر فضل لا يقدر في مشاورته مع الصديق للجمع الاول ، فإنه كان المرجع الاول الذي جمع منه في عثمان لتوحيد اللسان .

ولكن اتباع ابن مسعود في الكوفة عابوا ذلك على عثمان وقالوا كان القرآن كتباً فحرقها إلا واحداً ، فصاح فيهم ابن مسعود وقال : ولا كل ذلك فإنكم والله قد سبقتم سبقاً بيناً فاربعوا على (اشفقوا على) انفسكم فعن ملأ منا كان ذلك فلو وُلّيت منه ماولى عثمان لسلكت سبيله وكان ذلك في عام ٣٠ هـ .

وقد وحد عثمان الامة على مصحف واحد في وحده قوية لا انفصام لها .

ولولم تتجه العناية إلى القرآن من اول ماراه عمر من ضياع القراء الحفظه في اليمامة ، الى أن رجع عثمان الى هذا الذي في عهده لوقع ماكان يخشاه حذيفة بل وعمر من قبله في الجمع الاول . لتعدد القرآن مثل تعدد التوراة والانجيل .

ولكان الضرر أشد لأن القرآن خاتم الكتب السماوية فلا كتاب بعده ولا شريعة بعد الشريعة الاسلامية ، ومن هنا كان الضياع الذي خشيه عمر فى الاول وتعدد القراءة واللبس على المسلمين ، وهو الذي خشيه حذيفة ، واتقاه عثمان بأمره لزيد والثلاثة معه بجمع القرآن ، فقد وعد المولى بحفظ كتابه ، وقد حقق الوعد الذي وعد به امة النبى ﷺ بقوله سبحانه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

مظاهر عناية عمر بالقرآن الكريم

لازمت نفس عمر العناية بكتاب الله منذ أسلم وعلى لسانه وفى يده صدر سورة « طه » وقد انفعلت نفسه وانصهر وجدانه بقراءة قوله سبحانه « طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى » ووجد نفسه يسأل خباب ماأحسن هذا الكلام وأجملة ، وكان تأثير ذلك قوله لخباب : فدلنى ياخباب على محمد لآتيه فأسلم .

وكان عمر قد استقر يومها على قطع المسافة بينه وبين النبى ﷺ ليقتله ، وإذا بمعجزة القرآن تبدل من وجدانه وتتمكن من شغاف قلبه ـ فتسوقه إلى الأمنية التى امتزجت بدمه فجعلته يتعجل الذهاب إلى مكان محمد ليشهد مع الذين أسلموا من قبله شهادة الحق وتملأ قلبه بحب محمد ـ وتصديقه فيما أخبر به عن ربه أن الله تعالى واحد ، وأن محمداً رسوله إلى العالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وقد ألهم الله عمر حب القران ومن أنزل عليه القرآن فعاش حياته منذ أسلم مستنيراً بنور تلاوته مهتدياً بهدايته وتدبر معانيه محتكماً بشريعته معزاً له ومعتزاً به .

وفى بركات دعوة رسوله ظل عمر مؤيداً للاسلام الذى حمل القرآن جوهره ـ واستودع الله كتابه الدين القيم فأظهره على الدين كله وكفى بالله معزاً وكفى به ولياً ونصيرا .

موافقات عمر للقرآن : وقد منح الله عمر أتم نعمه وأكمل بركاته بموافقاته وحبه ، وحرك لسانه بآيات منه تلاها ـ وجبريل فى الطريق بها إلى قلب محمد ﷺ فى عشرين موضعاً ذكرها السيوطى رحمه الله تعالى .

وتلك منة أشعر الله بها قلب الفاروق ـ وشرح الله بها صدره ، وقد عبر خاتم المرسلين عن عمر بأنه لوكان فى الأمة محدثون ملهمون لكان عمر .

وأجرى الله سبحانه أحكام هذه الآيات على لسان عمر فتعبدها وتعبد عباده بها ورضيها الله تشريعاً ورضى الله عن من امتثلها تكليفاً واتخذها خلقاً كريمًا .

وأمر النبى ﷺ نساءه بأن يحتجبن حيث يدخل على الرسول ﷺ البر والفاجر ـ وأمر النبى بأن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى .

وتدرجت الآيات ببيان حكم شرب الخمر بياناً شافياً فى ثلاث مرات من التنزيل الكريم .

ابتدأت بالآية الكريمة « يسألونك عن الخمر والميسر » وقوله تعالى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ثم بآية المائدة بقوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وفى كل مرة يتوجه عمر بالدعاء طالباً البيان الشافى .

عندنا كتاب الله : وحين حضرت الوفاة النبى ﷺ كان فى لحظات إفاقته من الحمى يقول : إيتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، شفقة على أمته لئلا يضلوا ويحتاروا بعده . وكان الصحابة فى إجابة هذا الطلب فريقين .

فريق يصرف عن ذلك حرصاً على راحته ﷺ ، وكان عمر من هذا الفريق وقال : عندنا كتاب الله تعالى وقد تلقاه محمد ﷺ هداية ونوراً .

وكان عمر يبعث كبار الصحابة إلى الأمصار لتعليم الناس القرآن والدعوة إلى الاسلام ، فكان يسير معهم مودعاً لهم ومرشداً إلى الاهتمام بالقرآن ، ويقول موجهاً لهم : إنكم ستجدون قوماً لهم دوى بالقرآن فلا تشغلوهم بالروايات فتصدوهم عن القرآن ، وكان يقول : أقلوا الرواية وجودوا القرآن أو جردوا القرآن ، امضوا وأنا شريككم .

وفكر عمر يوماً فى جمع السنة واستشار الصحابة فأشاروا عليه بكتابتها ثم طفق يستخير الله تعالى ومكث على ذلك شهراً ثم أصبح وقد عزم الله عليه ألا يفعل ، وقال فى سبب انصرافه عن تدوين السنة : تذكرت قوماً كتبوا كتباً فأقبلوا على ماكتبوه وتركوا كتاب الله تعالى وقال : إنى لا أريدأن ألبس كتاب الله تعالى بشىء أبداً ، كما أثر عنه قوله فى الروايات والسنن : أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ .

وكذلك أثر عنه أنه نهى عن الاكثار فى الرواية وشدد على الرواة فى ذلك ليبقى الاهتمام بالقرآن الكريم وهو أصل الدين وسند لأدلته ومنبع الهداية ومرجع الأحكام ، ولعمر فى ذلك قدوة عالية وإمام مبارك هو النبى ﷺ وهو الذى اهتدى بالقرآن وهدانا

إليه به وبين لنا كنوزه وأرشدنا إلى مراد ربه فيما نزل عليه وما أودع الله فيه من حكمة وأحكام ـ وماشتمل عليه من بيان وتفسير ـ وما تضمنه من مقاصد الشارع وما أراد سبحانه من تقييد وتخصيص ولذلك أمرنا النبى بالاتجاه إليه وصرفنا عن كتابة أى شىء سواه بقوله : لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه .

ولقد تأكدت عزيمة عمر بالاهتمام بأصل الاسلام ومرجعه ـ اقتداء بالنبى ﷺ فى حرصه الموثق واهتمامه المؤكد على مراجعة جبريل ومدارسته القرآن معه كل عام مرة وفى آخر أعوام النزول كانت مدارسة جبريل القرآن معه مرتين .

وهكذا كان محمد منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن يسارع بالقراءة حرصاً منه على الالمام بالقرآن حتى طمأنه مولاه فنهاه عن الاستعجال بوعده له بأنه سيقرئه القرآن دون أن تغيب عنه آية فى قوله سبحانه « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً » .

كما وعده مولاه بأنه لن ينسيه آية فقال : « سنقرئك فلا تنسى » وقال سبحانه « إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

وقد وعد الله النبى عليه الصلاة والسلام بأنه سيجمع له القرآن فى صدره فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه ، وزاده تبارك وتعالى بركات ونفحات فتعهد له ببيان ماخفى عليه وبتحديد مراد الله تعالى فى مجمله ومطلقه وعامه وخاصه ثم أمره بتبليغ أمته مامنحه الله إياه بقوله سبحانه « ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك » وأمره بأن يبين لأمته مابينه الله فقال بعد عهده له بالبيان « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » .

وقد يسر المولى عز وجل على الأمة قراءة كتابه الذى أنزله عليه لهم ، وقد أنزله سبحانه قرآنا عربياً وكان العرب جملة من القبائل تجمعهم العربية وتتعدد لهجاتهم فى نطاق عربيتهم فقال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » لتقرأ القبائل حسب لهجاتهم تيسيراً عليهم وتخفيفاً عنهم ، ثم كان كُتّاب الوحى بعد أن يكتبوا بأمر الرسول مانزل عليه فى الموضع الذى كان يحدده ﷺ وباللسان الذى يقرئهم به فيكتبوه به ، ويرشدنا إلى ذلك قول عثمان رضى الله تعالى عنه للنفر الأربعة فى الجمع الثانى : إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم .

وكان الثلاثة الذين اشتركوا مع زيد فى الجمع الثانى من قريش فإنه نزل بلسانهم

وبعد تنفيذ أوامر الرسول ﷺ كان كل واحد منهم يكتب لنفسه مايحتفظون به لديهم لعلمهم بأنه أصل الدين وجوهر الاسلام ومنبع التشريع وموطن الأسرار والحكمة ومرجع التفصيلات والمبادىء والكليات .

وفى باب الواقع لقد هدى الله بالآيات الكريمة أناساً من الضلال إلى الهدى وأخرج بعض الناس من الظلام إلى النور ـ بل حقق الله تعالى أوصافه التى وصفه بها فكان لبعض الناس شفاء ورحمة .

وقد أدخل سبحانه أنوار القرآن قلوب المؤمنين ، فدخل عمر حديقة الاسلام وهو يقرأ صدر السورة العشرين من سورة القرآن المجيد « بسم الله الرحمن الرحيم . طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى » . وتحكى قصة إسلام عمر أنه قال بعد أن قرأ هذه الآيات : ماأحسن هذا الكلام وأجمله فدلنى ياخباب على محمد لآتيه فأسلم ، وقد دله خباب وأسلم عمر .

وقد كتب عمر إلى رجل يعرفه فسأل عنه فأخبروه بأنه عاكف على الشراب لا يفارقه فكتب عمر إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير . » وبعث بها صاحبه وأخذ الرجل يقرأ ويتأمل ثم يتلو ويتدبر ويردد « غافر الذنب وقابل التوب » فكانت من بركات الكتاب العزيز أن حسنت توبته وأقلع عما كان فيه ـ وخلصه الله من الشيطان ـ ولم يكن أحد هناك يعين الرجل على الشيطان ـ وكان من إخلاص عمر فى حبه للرجل وحب التوبة له أن تاب الله عليه بحمد الله .

الفاروق أبو حفص : وقد قبل الله عز وجل دعوة رسوله فأسلم عمر ودخل فى دين الله فى لحظة بدت فيها الدعوة النبوية دعوة طيبة مباركة مجابة ، ففى الدقيقة الأولى لإسلام عمر وتردد صدى التكبير فى الأفاق مؤذنة بعهد جديد للرسالة الخاتمة ولمن أرسل بها ولمن اتبعه وتوالت بعد ذلك إعداد العزة التى حققها الله للإسلام بعمر بن الخطاب وكان بعد التكبيرة الأولى مقابلة من عمر للرسول ﷺ أبدى عمر فيها أولى خطوات إسلامه ، فقال يارسول الله ألسنا بالمسلمين ؟ فقال النبى : نعم ، وقال عمر : فأليسوا بالكافرين ؟ فقال النبى : نعم ، ألسنا على الحق فقال النبى نعم ، فأليسوا على الباطل ؟ فقال النبى : نعم . قال عمر فعلام نخفى ديننا ؟ .

وعرض على الرسول ﷺ الجهر بالاسلام وأجاب الرسول بأن يخرج العدد الذى أسلم من دار الأرقم إلى الكعبة فى صفين على أحدهما حمزة بن عبد المطلب وعلى الثانى عمر بن الخطاب مكبرين ظاهرين بنور الاسلام وبركات النبى وإيمان من سعد بسبق الاسلام قبل عمر .

وسمعت الدنيا بإسلام عمر الله أكبر من العدد المحدود الذى كان بدار الأرقم .

وكان امتزاج قلب عمر بالقرآن هو النور الذى أضاء الله به حياة عمر فحسن اسلامه وأحب القرآن واحب الرسول ﷺ حبا زاد عن حبه لنفسه . وبارك القرآن

نفس عمر بن الخطاب فكان للاسلام ظهراً وللمسلمين عوناً وعلى أعداء الاسلام حرباً .

قال ابن مسعود : إن عمر إنتصف لنا ممن ظلمنا .

وكانت مشورة عمر على أبى بكر بوجوب جمع القرآن الكريم بعد أن استشهد أكثر القراء الحافظين لكتاب الله ـ وكان ذلك فى اليمامة وهى أولى المواقع بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، فإذا استمر ذلك فى المواقع فإن القرآن يضيع بضياع هؤلاء الحفاظ ـ ولولا ذلك الجمع لا نتهى القرآن بانتهاء حفاظه ، بل لولا الجمع ـ لما تمكن الصحابة من حفظ قراءته والعلم بلغته وضبط كلماته وشكل آياته ومكان انتهاء الآية مما قبلها ـ ومكان ابتداء مابعدها بعد انتهاء الآية . ولقد حدث حذيفة عما كان بين الصحابة فى أرمينيا وأذربيجان من لحن وتعصب لقراءة على قراءة ، فإن مصدر الجمع الثانى هو الذى كان من عمل زيد بأمر الصديق ومشورة عمر وتمسكه برأيه .

ومن آثار الجمع الأول وهو الذى أشار به عمر على أبى بكر أن الحوادث قد كثرت بعد الرسول ﷺ فى عهد عمر مما ظهر فى العرب وفى البلاد المفتوحة ، وكان أكثر الإجابة والفتاوى بناءاً على مادلت عليه الآيات من تطبيقات اعتمدت على المصالح وبناء الأحكام عليها حيث امتدت الدولة الاسلامية وشملت فارس والروم وقد أظهر ذلك وقائع كثيرة أخذت أحكامها من اهتداء لعمر واستنباطه له .

تأثير القرآن فى وجدان عمر

أسلم عمر رضى الله تعالى عنه بتأثير كتاب الله تعالى ، فلقد كان عند أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها ، خباب بن الأرت ومعه صدر السورة العشرين من القرآن الكريم « طه ماأنزلنا عليك القران لتشقى » وقد أقبل عليهما ليقرئهما صدر هذه السورة بعد نزولها . وحين شعروا بمقدم عمر عليهما اختبأ خباب فى ناحية من البيت خوفاً من عمر - وكان لا يزال على دين قريش . وكان شديداً على من يسلم فخافوه على خباب . وخافوا أن يمس عمر صدر السورة أو لايوقر هذه الآيات ، فخبأت فاطمة هذا الجزىء من كتاب الله تعالى .

وكانوا قبل دخوله يقرأون مع خباب - فسمع عمر لهم هينمة ، وأراد الله له الكرامة والشرف - استجابة للدعوة المباركة على لسان نبى الله محمد ﷺ « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب » - فسأل أخته عما كانوا يقرأون - فقالت : إنا نخافك عليها . فتعهد بألايكون منه مايخافونه عليه .

وتحكى راوية إسلامه أن أخته فاطمة قالت له : إنك على الكفر لا يجوز لك مس شىء من القرآن . فقام وتطهر ثم أخذ يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . له مافى السموات ومافى الأرض ومابينهما وماتحت الثرى » .

وقرأ عمر ـ وانفعل بها قرأ ـ ومست شغاف قلبه بركات القرآن وروحانيته ، وتدبر عمر وتأمل فى الآيات وشعر بالنور تتفتح له نفسه وقلبه ووجدانه .

وفجأة قال عمر : ما أحسن هذا الكلام وأجمله . فدلنى ياخباب على مكان محمد لآتيه فأسلم .

وأجاب الله دعوة نبيه ـ وأضحى عمر فى الطريق لإعزاز دين الله وتأييده ـ وجاءت معجزة إسلامه بخطوات تحركت بها قوة عمر ليشهد ألا إله إلا الله ويشهد بأن محمداً رسول الله ﷺ بعد أن قطع خطوات قبل ذلك وبيده السيف خارجاً من غمده ليقتل به محمداً .

سبحان الله ذى الجلال والاكرام ـ وحظى عمر ليقطع الطريق بينه وبين النبى صلوات الله وتسليماته عليه . ليقول كلمة الاسلام ، ويجهر بها لتدوى فى فجاج مكة الله أكبر ولتسمع تكبيرات إسلام عمر أهل الأرض وتتجاوب بها ملائكة السماء فتهتف الله أكبر .

التدرج فى تشريع حرمة الخمر

كان النـاس فى الجاهلية قد تعودوا إشباع غرائزهم بالانطلاق فى إجابة إلحاحها بلاحدود مانعة ولا قيود رادعة أو مروءة مؤدبة .

فى الزنا ـ إنساق قوم فلبوا نداء الغريزة الجنسية على أى وضع أو زمن أو حال ، ووجد الرجال فى استجابة النساء مساعدة معينة على تحقيق هذه العادة حتى كانوا يقـرنون بين تقديم الكأس وتقديم البغى ـ وقد لوحظ ذلك من خلال كلمة عابرة حكاها المؤرخون فى قصة زياد بن أبيه الذى نسبه معاوية بعد ذلك إلى أبى سفيان واستلحقه أخا له لأنه ربما كان على بصيرة من أمره .

وعبارة حكاية الأخبار أن أبا سفيان كان فى زيارة للطائف وكان فيها خمار يقدم الكئوس وفى إثرها النساء . فلما شرب أبو سفيان نادى اليهودى صاحب الحانة ثم قال له : إبغنى بغيا . فقال له الخمار : ليس عندى إلا جارية ، فوافق عليها أبو سفيان لأن ضغط الخمـر فى لحظتها لم تترك له فرصة للاختيار أو الانتظار ، وقدمها إليه ، فقضى منها وطرا ثم حملت بزياد ، وكانوا فى الجاهلية فى إلحاق النسب فى مثل هذه الحالة تغلب عليهم الأناة ، وتعز عليهم سلطة القبائل ، أن يلحقوا عبيداً أو سود الوجوه بالنسب ، فكان زياد ثمرة من أبى سفيان وهو فى نشوة الخمر ، فجاء بعد شرب وزنا ولقد بدت رحمة الله تعالى فى رسالة محمد ﷺ فى وجوه متعددة شملت جميع المخلوقات ، وفى مقدمة ذلك الرحمة فى التشريع ، وهو سبحانه وتعالى أعلم بما كان عليه عباده من إباحة مطلقة فى الأمرين : الخمر والنساء ، فلم يشأ عز وجل أن يفاجأ

عباده بأثقال التكليف ، وفى التحريم والمنع ، بل سلك بهم مسلك الأناة والتدرج ليهىء النفوس للقبول ، ويهىء الانسان بحيوانيته لقبول التحريم فيما لصق بهم بحكم العادة . وقد جاءت رحمته فى مثل هذه الأمور واسعة لأن صفتها والولوغ فيها كان مالكاً لزمامهم فبدت رحمته فى التحريم .

١ - فأولاً : لم يبدأ المولى بالتشريع التفصيلى فى التحريم والتكاليف بل توالت الأيات فى ثلاثة عشر عاماً للأمر بالتوحيد والايمان الصحيح ، وقبل ذلك كانت نواهيه بترك الشرك والأوثان . وقد غنموا الأسلوب بالتخلية والتحلية .

أما التخلية فكانت فى النواهى المتوالية فى بيان مفاسد الشرك وقبح الوثنية ، ومضار الخضوع والتذلل لأحجار لا تدفع شراً ولا تجدى نفعاً ، وحين طهر القلوب من هذه الأوثان بالوعيد والتشديد ، جاءت الأوامر بالتوحيد والايمان ، ليحل الايمان محل الكفر فى قلوبهم ولتسكن عبادة الله تعالى محل الخضوع لأوامر الكهنة ، وتغريرهم بهم واستنزافهم للأرزاق وإرضاء اللآلهة ، فاستقر الايمان فى قلوب المؤمنين هدياً ونوراً .

ومع هذا المقصد الأصلى ، كانت الأوامر بالأخلاق الحسنة والمكارم المقبولة قد امتزجت هى الأخرى بنور التوحيد . وكما اقتلع النهى عن الشرك الوثنية من القلوب ، فقد اقتلعت النواهى الإلهية عن مفاسد الاخلاق .

ثم على غرار ماشرع الله فى الايمان - بعد أن خلاهم من مفاسد الأخلاق ، حلاهم بمكارمها ، ونبه النبى ﷺ المؤمنين وغيرهم إلى أن جماع الرسالات وخلاصة الشرائع ، الأمر بمكارم الأخلاق فى قوله ﷺ « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وذلك لأن أصل عبادة الله سبحانه وتوحيده والإيمان بما أنزل وأرسل وشرع من مكارم الأخلاق لأنه ضد الخضوع والتذلل للكهنة والأوثان ، وعبادة الأوثان والأصنام من المساوىء التى يأنف منها المؤمن ، وتنفر منها قلوب المتدينين .

وبعد أن تحقق هذا الأصل فى بعثة خاتم المرسلين ، تهيأت النفوس واشرأبت العقول لاستقبال التشريع العادل ، بل ألحت القلوب والعقول لطلب العدل والخير وكرامة الارتباط بين العباد وربهم وبين العباد بعضهم مع بعض .

وهذا فى الواقع استعداد لتلقى التشريع . وقد تهيأت الجموع من المؤمنين والمؤمنات لاستقبال الأوامر وطاعتها والنواهى والامتثال لها .

وعلى هذا الأصل جرت الشريعة فى نزول الآيات المتضمنة للأحكام ، وتوالت الأحاديث المبينة لمعانى التشريع . واستمر ذلك عشر سنوات فى المدينة بعد الهجرة . وبعد أن هاجر النبى ﷺ ولحق بمن سبقه إليها بأمره من أهل مكة ، واستقبلهم

الأنصـار مرحبـين مكـرمين فرحين بدين الله القيم وبإخوانهم المهاجرين وبالرسول الأكرم علية الصلاة والسلام .

ابتدأت النواة الأولى لتكوين الدولة الاسلامية ، واحتاجوا إلى تنظيم الارتباطات بينهم وبين ربهم والرسول الذى حمل إليهم الدعوة والدين ، فنزل الوحى المتوالى على الرسول عليه الصلاة والسلام بالأحكام التى رضيها الله شرعاً لعباده .

ولكنه على غرار ماوقع فى مكة لم ينزل الآيات بالشريعة دفعة واحدة ، بل أخذت الأحكام أسلوب التدرج لكثير من الحكم ، وغير قليل من عوامل النجاح فى الامتثال .

ولقد كانت البعثة المحمدية خاتمة للرسالات الالهية فى هذا الكون . فتضمنت من القوانين كل ما كان صالحاً مما أنزله الله على أمم سبقت ودول غبرت ، وأضاف المولى إلى شريعته الخاتمه مالم يكن ملائماً لما قبلهم ـ وقد أعدهم لهذا الذى لم يصلح لغيرهم ـ ثم لما جرت إرادته على أن تكون هذه الشريعة هى الخاتمة ، أودع فيها الكمال والتمام لكل مايبلغ بالناس استقامة الحياة وفلاح الأخرة .

ولذلك كان الأسلوب الألهى فى التشريع والعمل به ـ أن كل ما كان ملائماً للبشرية لمجرد الانسانية العامة ـ بقى فى تعاليم الشريعة الخاتمة قانوناً عاماً ـ جرت أحكامه على الآخرين كما احتكم إليه السابقون بلا تغيير ولا إنكار عليه كقوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » .

أمـا ما كان منـاسبـاً للماضين فى حالهم ودرجة رقيهم ومدى تفكيرهم وأحداث حياتهم ، ولم يعد مناسباً لمن جاء بعدهم ، فإنه قد أعفى عنه الناس بعدهم ، وحذفه من الشريعـة النهـائية « الاسـلامية » كالتشديدات التى كتبت على من سبق . فى الذنوب كانوا إذا أذنبوا أصبحوا يجدون الذنب مكتوباً على الباب إعلاماً لهم بما فرط منهم .

وأما الجديد الذى لم يعهد فى السابقين مما كان قد تجاوز أحوالهم واستعدادهم فهو الجديد الذى وسعته الشريعة الاسلامية . ولم يغادر النبى ﷺ هذه الحياة إلا بعد أن تم التشريع وكمل الدين .

وكان مما امتازت به هذه الشريعة هو التدرج فى تحريم أمور كثيرة كانت شائعة فيهم وممتزجة بدمائهم ومنها الخمر .

كان العـرب يكثرون من شرب الخمر ، وقد تغنى بها شعراء العرب إشادة بها وتدللاً بصنعها ، فأصبحت عادة متأصلة فيهم ، ولم يكن من الميسور فطمهم عنها مرة واحدة ، إلا إذا أراد المولى ذلك ، وحينئذ يشق على الناس الامتثال ، ويصعب

على من تعود عليها طول حياته تركها . فكانت الفتر الأولى إعداداً لقبول مثل هذا الحكم فيها وفى سائر مايشبهها .

وبعد أن تمت فترة الاعداد بالإيمان ـ أخذ التشريع لها المراحل الآتية :

آية سورة النحل

قال الله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

وقد فسر الفقهاء « السكر » وهى الكلمة المتصلة بتشريع حكم الخمر .

فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه المراد بلفظ « سكراً » أى خمراً ـ وقد نزلت الآية قبل تحريم شرب الخمر تحريمًا كاملاً .

والمراد بالرزق الحسن : كل شيء يؤكل ويشرب وهو حلال من الشجرتين اللتين يخرج منهما السكر والحلال المعبر عنه بالرزق الحسن ـ النخيل والأعناب وهذا قول الشعبى وإبراهيم النخعى .

وقيل إن السكر هو الخل وهو كذلك باللغة الحبشية والرزق الحسن هو الطعام . وهذا هو التفسير الثانى لكلمة « سكر » وقيل إن لفظ السكر هو العصير الحلو الحلال . ولأنه قد يصير سكراً سمى سكراً ـ إذا بقى ـ وإذا تُرك حتى بلغ درجة الإسكار كان خمراً .

وقيل السكر « الطعم » واختاره الطبرى فهو مايطعم من الطعام الحلال كما يحل شربه من ثمار النخيل والعنب . وكذلك هو الرزق الحسن . فمعنى السكر والرزق الحسن واحد وإن تعدد اللفظ ـ وأنكره أهل اللغة .

وعند الحنفية ـ السكر هو مالا يسكر من النبيذ وارتضى جمهور العلماء تفسير السكر بالخمر المتخذ من النخيل والأعناب وهذا المعنى هو تفسير اللفظ عند علماء اللغة ـ ورجح ابن العربى تفسير ابن عباس وهو ان السكر هو الخمر ـ والرزق الحسن الحلال من ثمار النخيل والعنب والآية عنده نزلت قبل تحريم الخمر .

ويكون المعنى أن الله تعالى أنعم عليكم بثمرات النخيل والأعناب وأنتم تتخذون من هذا الثمر الحلال المقصود لمنفعتكم كما تتخذون من هاتين الخمر اعتداءًا .

ورجح أهل العلم أن نزول الآية كان قبل التحريم وأن هذه الآية منسوخة بآية التحريم وقد نزلت فى مكة وتحريم الخمر كان فى المدينة بعد سنين من الهجرة والأصح أن الآية تشير إلى الفرق بين الخمر والرزق الحسن فالأولى مسكرة والرزق الحسن

حلال لا يسكر وإلا لما وصف بالحسن ووقوع ماسمى خمراً فى مقابل الرزق الحسن يدل على أنها ليست من الرزق الحسن فيجب أن يتركها المسلم ويبتعد عنها بقدر قربه من الرزق الحسن وحبه له .

وبهذا المعنى الأخير صلح أن تكون الآية مرحلة من مراحل تشريع حكم شرب الخمر .

فحاصله أن الله تعالى أنعم عليكم بهاتين الشجرتين ولكم ثمارها وأنتم إما أن تسابقوا إلى هذا الرزق الحسن الجميل الحلال أو تتخذوا من الثمار خمراً فإذا أخذتم الثمار منفعة ونعمة خالية من الإسكار فقد أخذتم النعمة وعرفتم كيف تأخذون منها نعمة عظيمة لنفعكم وهذا جانب فى هذه الثمار .

ويقابل ذلك أن تصنعوا منها شيئاً مسكراً محرماً فيكون ذلك اعتداءً منكم ـ وإذا وضع الله النعمة الحلال فى مقابل السكر الحرام فذلك بيان وإيضاح للمقابلة بين الحلال والحرام فيكون إشارة إلى البعد عن السكر المحرم . ولذلك ذكر لفظ سكراً ولم يذكر له وصفاً بينما ذكر الرزق ووصفه بالحسن « ورزقاً حسناً » .

آية سورة البقرة

المرحلة الثانية : وأستمر العرب فى شرب الخمر المتخذ من ثمار الشجرتين . لأن الآية لم تصرح بالنهى عن السكر بل إنها ذكرت السكر هكذا من غير تعقيب أو وصف إلا مايفهم من التقابل بين السكر والرزق الحسن فكانت تمهيداً لما سيأتى بعدها .

قال تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »

كانت عادة السؤال عن الأحوال والمنافع والأعيان وما كان عليه الناس قبل الإسلام عند المؤمنين والكافرين واليهود فالمؤمن كان يسأل الرسول ﷺ عن شيء لم يعرف حكمه يريد بذلك معرفه الحكم ليفعل أو يترك حتى تحصل عنده الطمأنينة لما يفعل أو يدع من جهة سكون القلب بالعلم بالحلال والحرام .

وأما أعداء الإسلام فإنهم كانوا يسألون تعنتاً وجحودا منكرين جاحدين كسؤالهم عن الساعة وعن الروح وعن أحكام كانت معروفة عند اليهود يريدون المخالفة والمغالطة كسؤالهم عن عقوبة الزنا وهم على علم بالحكم من التوراة وكان هذا السؤال عن حكم الخمر وماذكر معها من الميسر والأنصاب والأزلام .

فالخمر كانت تشرب والسؤال لمعرفة الحل والحرمة والأنصاب كانت تعبد والمراد العلم بها والأزلام أقداح كانوا يديرونها لمعرفة ما يفعلون من سفر أو عمل .

وقد جاء الجواب بذكر عاقبة الخمر فصرحت الآية بأن فيها إثماً كبيراً ومنافع كما صرحت بأن الإثم أكبر من النفع ـ وكان الناس كما قال سعيد بن جبير مستمرين على ماكانوا عليه فى محل السؤال فى الجاهلية حتى يؤمروا أو يصدر النهى عن محل السؤال .

وهنا كان الناس يشربون الخمر قبل الإسلام واستمروا بعد الإسلام حتى سألوا وجاء الجواب المذكور فقالوا : نشرب للمنفعة لا للإثم ـ ولكن كانت الشبهة لا تزال فى عقول الناس . ولذلك كان عمر يسأل « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » إلى أن نزلت الآية الأخيرة فى سورة المائدة « إنما الخمر والميسر . . . » فقال بعدها : انتهينا انتهينا ولم يقل ذلك قبل هذه الآية الأخيرة والآية الخطاب فيها جعله الله عاماً لجميع المؤمنين ليتركوا هذه التى ورد النهى عنها بأبلغ أسلوب وأشده فقال تعالى « يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

فلقد كانت شهوات وعادات تلبسوا بها فى الجاهلية وغلبت على نفوسهم فكان بقى بقية منها فى نفوس كثير من المؤمنين .

فقال القرطبى : والخمر كانت غير محرمة قبل نزول الآية وإنما نزل تحريمها فى سنة ثلاث من الهجرة بعد موقعة أحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة وتتمثل الرحمة الربانية فى مثل ذلك فالنبوة والرسالة كانتا لسيدنا محمد ﷺ وهو فى مكة ثلاث عشرة سنة ثم ثلاث فى المدينة بعد الهجرة وأخطر الأشياء لم يحرمها الله إلا بعد هذه المدة الطويلة رحمة بهم وتدرجاً وتأليفاً بإعداد النفوس لتلقى التحريم بالامتثال بعد أن طهر الله القلوب بالإيمان ومكارم الأخلاق ثم استقبلوا التشريع أمراً ونهيا وهى المدة التى استغرقها التشريع الكامل نزلت به الآيات ومنها الخمر .

والمعلوم أن عمر رضى الله تعالى عنه كان فى الجاهلية صاحب خمر وكان الشباب فى قريش مغرمين بها عاكفين على شربها .

ومن تعود على ذلك فإنه لا يسأل ولايتمنى أن يحرمها الله ومع هذا فإن عمر أحس بقبحها ـ بل دعا الله أن يبين لهم حكمها على ضوء ماشعر من مفاسدهم . وكان الحال يقتضى أن يسكت عنها وأن ينتظر الأمر الإلهى بتحريمها ـ ولكن عمر أدرك من شأنها ماجعله يتجه إلى الله بأن يبين حكمها بياناً شافياً دون من كانوا متأثرين بشربها .

وقول عمر : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً بمثابة الدعاء إلى الله تعالى بأن يطهر المؤمنين منها .

وعند عمر كما يعبر علماء الأصول « سبق الداعية » بتعوده على شربها ممايجعل تركه

لها صعباً ـ ولكن عمر كان منذ أسلم حريصاً على الكمال الخلقى وملهما لإدراك ماهو خير للفرد والجماعة وقد تركها أبو بكر ولم يشرب الخمر قط . ومن لم يشربها لايشعر بمشقة فى تركها لأنه سائر على عادته قبل التحريم وأما عمر فقد كان صاحب خمر فى الجاهلية ومع هذا فإنه لم يأسف على التحريم .[وقوله من أول مرحلة فى تشريع التحريم « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » ومن شفافية قلبه وعقله فى الشعور باستقباح الخمر قبل أن تحرم وكان ذلك من جملة فضل الله تعالى فى موافقاته للوحى يتقدم بدعاء ربه بأن ينزل مايقطع بالتحريم رضى الله تعالى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاحب الإدراك الدقيق : فإنه فى كل مرحلة من مراحل التشريع بحرمة شربها لم يكن من الظهور للكافة أن يحتاج المسلم إلى إدارك أن مانزل فى المرحلة الأولى لم يكن شافياً لأنه لم يطلب هذا البيان إلا عمر حتى أنزل الله عز وجل الآية الأخيرة فقال عمر : انتهينا ـ انتهينا إجابة لقول المولى جل ثناؤه « فهل أنتم منتهون »] .

آية سورة النساء [1]

وهى الآية الثالثة فى الخمر

« يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » .

خص الله المؤمنين بالخطاب فى هذه الآية لأنهم كانوا يقيمون الصلاة وقد أخذوا من الخمر وأتلفت عليهم أذهانهم فَخُصّوا بهذا الخطاب إذ كان الكفار لا يفعلونها صحاة ولا سكارى .

وروى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » .

فنزلت الآية التى فى البقرة « يسألونك عن الخمر والميسر » قال : فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » فنزلت الآية التى فى سورة النساء « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » .

فطاف منادى رسول الله ﷺ وهو سكران ـ فدعى عمر فقرئت عليه فقال : « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية « فهل أنتم منتهون » قال عمر : انتهينا انتهينا . انتهينا .

---

١ ـ سورة النساء الآية /٤٣

وقال سعيد بن جبير : كان الناس على أمر جاهليتهم حتى يؤمروا أو ينهوا ـ فكانوا يشربونها أول الإسلام حتى نزلت « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » قالوا : نشربها للمنفعة لا ـ للإثم فشربها رجل فتقدم يصلى بهم فقرأ « قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون » فنزلت « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فقالوا : فى غير عين الصلاة فقال عمر :. اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً ـ فنزلت « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ».

الآية فقال عمر : « انتهينا ـ انتهينا » .

ثم طاف منادى رسول الله ﷺ « ألا إنما الخمر قد حرمت فى سورة المائدة ».

وروى الترمذى عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت « قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون » قال : فأنزل الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى »

والحديث حسن صحيح ثم بينوا وجه الاتصال والنظم بما قبله أنه قال سبحانه وتعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

ثم ذكر بعد الإيمان . الصلاة التى هى رأس العبادات ولذلك يقتل تاركها ـ ولا يسقط فرضها ثم ذكر شروطها التى لا تصح إلا بها والمراد بالسكر المذكور فى هذه الآية سكر الخمر ـ وقال الضحاك المراد سكر النوم لقوله ﷺ « إذا نعس أحدكم فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإنه لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه . وفسر عبيدة السلمانى « وأنتم سكارى » بما إذا كنت حاقناً [1] .

وفى رواية : وهو ضامم بين فخديه .

اختلف العلماء فى المراد من الصلاة فى هذه الآية الكريمة :

١ ـ **فذهب أكثر المفسرين** : إلى أن المراد بها حقيقة الصلاة وهو مذهب أبى حنيفة والمروى عن على ـ ومجاهد وقتادة .

٢ ـ **وذهب بعض العلماء** : إلى أن المراد بالصلاة مواضع الصلاة وهى : المساجد والكلام على حذف مضاف وهو مذهب الشافعى ومروى عن ابن مسعود وأنس وسعيد بن المسيب .

واستدل الفريق الأول : بقول الله تعالى « حتى تعلموا ماتقولون » فإنه يدل على أن المراد لا تقربوا نفس الصلاة إذ المسجد فيه قول مشروع يمنع منه السكر . أما الصلاة

---

١ ـ أى المجتمع بوله كثيراً .

الصلاة ففيها أقوال مشروعة من قراءة وذكر يمنع عنها السكر فكان الحمل على ظاهر اللفظ أولى .

واستدل الفريق الثانى : بأن القرب والبعد أولى أن يكون فى المحسوسات فحمله على المسجد أولى ولأنا لو حملناه على الصلاة لم يصح الاستثناء[1] فى قوله « إلا عابرى سبيل » .

وإذا قلنا إن المراد به المسجد صح الاستثناء وكان المراد به النهى عن دخول المسجد للجنب إلا فى حالة العبور .

آيتا سورة المائدة

الآيــة الأولــى

ابتدأ الخطاب بقوله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا » وهو خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء إذ كانت شهوات وعادات تلبسوا بها فى الجاهلية وغلبت على النفوس فكانت بقية منها فى نفوس كثير من المؤمنين .

والخمر لم تحرم بعد - وإنما نزل تحريمها فى سنة ثلاث بعد موقعة أحد التى كانت فى شوال سنة ثلاث من الهجرة .

وتحريمها كان بالتدريج ونوازل كثيرة فإنهم كانوا مولعين بشربها .

وأول مانزل فى شأنها « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس .

وقالوا : لاحاجة لنا فيما فيه إثم كبير .

ولم يتركها بعض الناس وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فتركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة .

وشربها بعض الناس فى غير أوقات الصلاة حتى نزلت « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر » الخ فصارت حراماً عليهم حتى صار يقول بعضهم ماحرم الله شيئاً أشد من الخمر .

وقال أبو ميسرة حرمت ونزل بسبب عمر بن الخطاب فإنه ذكر للنبى ﷺ عيوب

---

١ - تفسير الطبرى ج ٥ ص ٩٥ عن الصابونى فى تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٤٨٤

الخمر ومايتزل بالناس من أجلها ودعا الله فى تحريمها وقال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية فقال عمر : انتهينا .

وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : نزلت فىَّ آيات من القرآن وفيه قال : أتيت على نفر من الأنصار فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمراً ـ وذلك قبل أن تحرم الخمر .

قال : فأتيتهم فى حسن البستان فإذا رأس جزور مشوى عندهم ـ وزق من خمر قال فأكلت وشربت معهم قال : فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت : المهاجرون خير من الأنصار .

قال : فأخذ رجل لحيى جمل فضربنى به فجرح بأنفى وفى رواية : فغزره ـ وكان أنف سعد مغزور فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأنزل الله تعالى فىَّ يعنى نفسه شأن الخمر « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » وهذه الأحاديث تدل على أن الخمر كانت إذ ـ ذاك مباحاً معمولاً به معروفاً عندهم بحيث لا ينكر ولا يغير وأن النبى ﷺ أقر عليه ـ وهذا ما لاخلاف فيه يدل عليه آية النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » وهل كان يباح لهم شرب القدر الذى يسكر ؟

حديث حمزة ظاهر فيه حين بقر خواصر ناقتى على رضى الله تعالى عنهم وجب أسنمتها ـ فأخبر على بذلك النبى ﷺ فجاء إلى حمزة فصدر عن حمزة للنبى ﷺ من القول الجافى المخالف لما يجب عليه من احترام النبى ﷺ وتوقيره وتعزيره مايدل على أن حمزة كان قد ذهب عقله بما يسكره .

ولذلك قال الراوى : فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل .

ثم إن النبى ﷺ لم ينكر على حمزة ولا عنفه لا فى حال سكره ولا بعد ذلك .

بل رجع لما قال حمزة : وهل أنتم إلا عبيد لأبى على عقيبة القهقرى وخرج عنه .

ولكن الأصوليين على خلاف ذلك حيث قالوا : إن السكر حرام فى كل شريعة ـ لأن الشرائع لإصلاح حال العباد لا لإفسادهم ،وأصل المصالح العقل .

كما أن أصل المفاسد ذهاب العقل ـ فيجب المنع من كل مايذهبه أو يشوشه إلا أن حديث حمزة يحتمل أنه لم يقصد بشربه المسكر أن يسكر لكنه أسرع فيه فغلبه .

والرجز : النجس قال ابن عباس : لخط وقد يقال للنتن والعذرة والأقذار ـ رجس . والرجز العذاب لا غير .

ومعنى : من عمل الشيطان : حمله عليه وتزيينه .

ومعنى : فاجتنبوه أى أبعدوه واجعلوه ناحية وقد أمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور .

وقد اقترنت بصيغة الأمر « فاجتنبوه » مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة فحصل الاجتناب فى جهة التحريم فبهذا حرمت الخمر ـ وهو أقوى تحريم فى سورة مدنية هى سورة المائدة من آخر مانزل .

وجاء تحريم شرب الخمر نهياً ـ وزجراً بأقوى التحريم وأوكده روى ابن عباس قال : لما نزل تحريم الخمر مشى أصحاب الرسول بعضهم إلى بعض وقالوا : حرمت الخمر وجعلت عدلاً للشرك يعنى مثله . فقرنها بالأنصاب وهى شرك .

وعلق الفلاح بالاجتناب وذلك يدل على تأكيد وجوب الاجتناب والله أعلم .

أثر دعوة عمر
« اللهم بين لنا
فى الخمر بياناً شافياً »

وهكذا جاء حكم شرب الخمر بالتحريم القاطع بعد أن دعا عمر بن الخطاب ربه بأن يبين حكمها بياناً يشفى صدور المؤمنين وقد انكشف علم الله تعالى بحرمة هذا الشراب الذى يستر العقل ويغطيه . وعمر منذ دخل فى الإسلام واستجاب المولى لدعوة رسوله ﷺ بأن يعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب .

ولقد كان لعمر جملة مواقع كان فيها مؤيداً للإسلام وملتزماً أحكامه طاعة لربه . مؤيداً لنبيه صلوات الله وتسليماته عليه .

لعن النبى ﷺ الخمر

ولعن معها عشرة : بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها .

وقد نص على تحريم الإثم فى الآية الشريفة « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم » ولذلك قال قوم من أهل النظر لأنها حرمت بهذه الآية للإخبار بأن فيها إثماً كبيراً وقد حرم الله الإثم فى الآية .

وإليك بيان معنى الخمر وبعض أحكامها .

الخمر :

الخمر مأخوذة من خمر إذا ستره منه خمار المرأة وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره ومنه خمروا آنيتكم ـ فالخمر تخمر العقل أى تغطيه وتستره ـ ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم لأنه يغطى ماتحته ويستره . يقال منه أخمرت الأرض كثر خمرها . وقولهم : دخل فى غمار الناس وخمارهم أى هو فى مكان خاف .

آية المائدة الثانية
وتأويل قدّامة بن مظعون
ابن مظعون

روى البخـارى [1] عن أنس قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة فنزل تحريم الخمـر فأمر منادياً ينادى فقال أبو طلحة أخرج فأنظر ماهذا الصوت ؟ قال فخرجت فقلت هذا منادى ينادى ألا إن الخمر قد حرمت فقال لى إذهب فأهرقها وكان الخمر من الفضيخ وهو شراب يتخذ من البسر المفضوخ وحده من غير أن تمسه النار . والمفضوخ هو المشدوخ قال : فجرت فى سكك المدينة فقال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم ـ قال : فأنزل الله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مااتقوا . . إلى قوله « المحسنين » وقد روى نحوه صحيحاً عن البراء أيضاً .

نزلت الآية فيمن شرب الخمر ثم قال فيه : « إذا ماطعموا » فكان ذلك دليلاً على تسمية الشراب طعاماً .

أما قوله « إذا مااتقوا » فقد اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال [2] .

---

١ ـ تفسير القرطبى جـ ٦ صـ ٢٩٣ الآية ٩٧ .

٢ ـ تفسير الطبرى ج ٦ صـ ٢٩٣ الآية ٩٧ .

٢ ـ اتقوا قبل التحريم فى غيرها من المحرمات ثم اتقوا بعد تحريم الخمر اتقوا فى الذى بقى من أعمارهم فاجتنبوا العمل فى المحرم .

٣ ـ اتقوا الشرك وآمنوا ثم اتقوا الحرام ثم اتقوا ترك الإحسان فيعبدون الله وإن لم يروه كأنهم يرونه .

قال الجصاص : وقد صرفت فيها أقوال على قدر وظائف الشريعة يكثر تعدادها وأشبهها بالقرآن والسنة :

ماروا الدارقطنى عن ابن عباس أن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله ﷺ بالأيدى والنعال والعصى حتى توفى رسول الله ﷺ فكانوا فى خلافة أبى بكر أكثر منهم فى عهد رسول الله ﷺ فكانوا يجلدون أربعين حتى توفى ـ فكانوا فى عهد عمر يجلدون كذلك أربعين .

ثم أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر عمر به أن يجلد فقال أتجلدنى ؟ بينى وبينك كتاب الله تعالى .

فقال عمر : أى كتاب الله تعالى أجد الا أجلدك ؟ .

فقال الرجل قال الله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مااتقوا وآمنوا . . ثم اتقوا وأحسنوا » فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم أتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا . شهدت مع رسول الله ﷺ بدراً ـ وأحداً والخندق والمشاهد كلها .

فقال ابن عباس إن هذه الأيات أنزلن عذراً للماضين . لمن غبر وحجة على الناس لأن الله تعالى يقول : « ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب . . » وثم قرأ حتى آخر الآية الأخرى فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر .

فقال عمر : صدقت . ماذا ترون ؟

فقال على : إنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وحد المفترى ثمانون فأمر به عمر فجلد ثمانين جلدة . وقال عبد الرحمن بن عوف عليه أدنى الحد ثمانون .

وروى البخارى [1] عن عبد الله بن عباس أن عبد الله بن أبى ربيعة قال : استعمل عمر قدامة بن مظعون على البحرين وقد كان قدامة ممن شهد بدراً وهو خال

---

١ ـ القرطبى ٦ /٢٩٧ .

عبد الله بن عمر وحفصة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ فقدم الجارود من البحرين فقال لعمر : ياأمير المؤمنين : إن قدامة بن مظعون قد شرب مسكراً وإنى إذا رأيت حداً من حدود الله تعالى حق على أن أرفعه إليك .

فقال له عمر : من يشهد لى على ماتقول ؟

قال : ابو هريرة . فدعا عمر أبا هريرة فقال : علام تشهد ياأبا هريرة ؟ قال : لم أره حين شرب ورأيته وهو سكران يقىء

فقال عمر : لقد تنطعت فى الشهادة اى تكلفت فى الشهادة ثم كتب عمر إلى قدامة وهو بالبحرين يأمره بالقدوم إلى المدينة فلما قدم قدامة والجارود بالمدينة فقال لعمر : أقم على هذا كتاب الله ياعمر :

فقال عمر للجارود : أفشهيد أنت أم خصم ؟

قال الجارود : أنا شهيد :

قال عمر : كنت أديت الشهادة فسكت الجارود ثم قال لتعلمن أنى أنشدك الله .

فقال عمر : أما والله ماذلك بالحق لتمسكن لسانك أو لأسوءنك .

فقال الجارود : أما والله ماذلك بالحق أن يشرب ابن عمك وتسوءنى ياعمر فتوعده عمر .

وقال أبو هريرة وهو جالس : ياأمير المؤمنين : إن كنت تشك فى شهادتنا فسل بنت الوليد امرأة ابن مظعون .

فأرسل عمر إلى هند ينشدها بالله فاقامت هند على زوجها الشهادة .

فقال عمر ياقدامة : إنى جالدك فقال قدامة إنى والله لو شربت كما يقولون ماكان لك أن تجلدنى ياعمر .

قال عمر : ولم ياقدامة ؟ قال : لأن الله قال « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مااتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا . . . » الآية إلى المحسنين .

فقال عمر : إنك أخطأت التأويل ياقدامة إذا اتقيت الله اجتنبت ماحرم الله .

ثم أقدم على القوم فقال ماترون فى جلد قدامة فقال القوم لا نرى أن تجلده ما دام وجعاً .

فسكت عمر عن جلده أياماً ثم أصبح يوماً وقد عزم على جلده فقال : إنه والله لأن يلقى الله وهو تحت السوط أحب إلى من أن ألقى الله وهو فى عنقى والله لأجلدنه .

ايتونى بسوط فجاءه مولاه بسوط رقيق صغير فأخذه عمر ومسحه بيده ـ ثم قال لأسلم : قد أخذتك بإقرار أهلك ايتونى بسوط غير هذا .

قال فجاءه أسلم بسوط تام وأمر عمر بقدامة فجلد فغاضب قدامة عمر وهجره ـ فحج عمر وقدامة مهاجر لعمر حتى قفلوا من حجهم ونزل عمر بالسقيا ونام بها .

فلما استيقظ عمر قال : عجلوا على بقدامة انطلقوا فأتونى به فوالله إنى لأرى فى النوم أنه جاءنى آت فقال لى : سالم قدامة فإنه أخوك .

فلما جاءوا بقدامة أبى أن يأتيه فأمر عمر بقدامة أن يجر إليه جراً حتى كلمه عمر واستغفر له فكان أول صلحهما .

فهذا يدلك على تأويل الآية وماذكر فيه عن ابن عباس وحديث الدارقطنى وعمر فى حديث البرقانى وهو صحيح وبسطه أنه لو كان من شرب الخمر واتقى الله فى غيره لا يحد على الخمر ـ ماحد أحد فكان هذا من أفسد تأويل وقد خفى على قدامة وعرفه من فقه الله له كعمر وابن عباس .

من الشمائل النبوية التى استفاد بها عمر

قال رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة عن ابن أبى هالة عن الحسن بن على قال :

(١) سألت خالى عن دخول النبى ﷺ (المراد دخوله منزله) فقال : كان دخوله نفسه مأذوناً له فى ذلك ، فكان إذا آوى إلى منزله قسم دخوله إلى ثلاثة أقسام أى أنه يجزىء دخوله ثلاثة أجزاء :

جزءاً لله عز وجل وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه . ثم جعل جزءه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصية ولايدخر عنهم شيئاً فكان من سيرته فى جزىء الأمة : إيثار أهل الفضل على قدر أفضالهم فى الدين : فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج . فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة عن مساءلتهم ويخبرهم بالذى ينبغى لهم ويقول : ليبلغ الشاهد الغائب وأبلغونى حاجة من لايقدر على إبلاغى حاجته فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لايستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة لايذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواد ولا يتفرقون إلا عن ذواق ويخرجون أذلة .

(٢) قال : فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟

فقال : كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه أو يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحرص من غير أن يلوى عن أحد

منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويسأل عما فى الناس يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه معتدل الأمر غير مختلف لا يميل مخافة أن يقتلوا أو يميلوا لا يقصر عن الحق ولا يتجاوزه للذين يلونه للناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

(٣) قال : فسألته عن مجلسه فقال :

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله عز وجل ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو قام لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها بميسور من القول ، قد وسع الناس خلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة وصدق لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحُرَم ولا تثنى فيه فلتاته معتدلين فيه بالتقوى ، يتواصون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

(٤) قلت : كيف كانت سيرته فى جلسائه فقال :

كان رسول الله ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ولا فاحش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه ولا يجيب فيه ، وقد ترك نفسه من ثلاث : المراء ـ والإكثار ـ وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ـ ولا يعيره ولا يطلب عورته ـ ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى كان أصحابه يستجلبونهم فيقول : إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء أى من رجل يعرف حقيقة إسلامه ، أو لايقبل الثناء عليه إلا من رجل معتدل فى الثناء غير مجاوز الحد ـ وهو ﷺ أهل للكمال كله والجلال كله . مهما قالوا فيه فهو أهل لكل وصف كما فضله ربه وصنعه على عينه وقال سبحانه فيه « وإنك لعلى خلق عظيم » [القلم : ٤] .

وقوله ﷺ يراد منه أن يكون الثناء المقبول عنده عليه من أحد معتدل فى كلامه ـ وإن كان جنابه محلاً لكل ثناء مهما قالوا فيه ـ فما الظن بمن أثنى عليه ربه ، وفطره على الخلق العظيم .

قال : ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام .

(٥) قال : فسألته كيف كان سكوته ؟

فقال : كان سكوت نبى الله ﷺ على أربع : على الحلم ـ والحذر ـ والتقدير ـ والتفكير .

فأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع من الناس .

وأما تفكيره ففيما يبقى ويفنى .

وجمع له الحلم والصبر فكان لا يغضبه شىء ولا يستفزه .

وجمع له الحذر فى أربعة : أخذه بالحسن ليقتدى به . وتركه القبيح ليتناهى عنه واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته والقيام فيما هو خير لهم وفيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة .

واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى

هذه الآية من أوائل موافقات عمر لوحي ربه عز وجل . فقد روى ابن عمر قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام ابراهيم . وفى الحجاب . وفى أسارى بدر . أخرجه مسلم .

وأخرج البخارى عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع . وزاد هنا وعبارته : قلت يارسول الله : لو صليت خلف المقام . فنزلت هذه الآية « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » .

وقلت يارسول الله : لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » .

فقلت لما نزلت : فتبارك الله أحسن الخالقين . فنزلت « فتبارك الله . . . » .

ودخلت على أزواج النبى ﷺ فقلت : « لتنتهن أو يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات . . » . فنزلت الآية : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات » .

وفى غير هذا الموضع : رأيه فى أسارى بدر . فتكون الموافقات خمساً .

المقام : قيل : إنه موضع القدمين . وقد تعددت أقوال العلماء فى تعيين معنى مقام : فقيل : إنه الحجر الذى يعرفه الناس اليوم وهو الذى يصلى الناس عنده ركعتين لطواف القدوم . ذكر هذا جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة .

١ ـ وفى صحيح مسلم من حديث جابر أن النبى ﷺ لما رأى البيت استلم الركن

فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فصلى ركعتين قرأ فيهما « قل هو الله أحد » و« قل يا أيها الكافرون » .

وهذا يدل على أن ركعتى الطواف لأهل مكة أفضل . ويدل من وجه على أن الطواف للغرباء عن مكة أفضل .

٢ ـ وفى البخارى أن المقام هو الحجر الذى ارتفع عليه ابراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التى كان اسماعيل يناولها إياه فى بناء البيت وغرقت قدماه فيه .

قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه . غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم .

٣ ـ وقال السدى : المقام هو الحجر الذى وضعته زوجة اسماعيل تحت قدم ابراهيم حين غسلت رأسه .

٤ ـ وقيل : إن المقام هو الحج كله [عرفه ـ مزدلفة ـ الحجاز] .

٥ ـ وقيل : إن الحرم كله مقام ابراهيم .

وقد اختاروا فى تفسيره الرأى الأول .

وأخرج أبو نعيم من حديث محمد بن سرقه عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنهم قال : نظر النبى ﷺ إلى رجل بين الركن والمقام أو الباب والمقام وهو يدعو ويقول : « اللهم اغفر لفلان » فقال النبى ﷺ : ماهذا ؟ فقال : رجل استودعنى أن أدعو له فى هذا المقام . فقال له : « ارجع فقد غفر لصاحبك » .

ومصلى : ومعنى هذا اللفظ : مُدْعَى يُدْعَى فيه ـ وقيل : موضع صلاة يصلى عنده ـ وقيل : قبلة يقف الامام عندها .

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه آداب الوجود فى المساجد .

واقتداءً به قال عمر لرجل سمع صوته فى المسجد : ماهذا ؟ أتدرى أين أنت ؟ .

وقال حذيفة : قال النبى ﷺ : « إن الله أوحى : يا أخا المنذرين . يا أخا المرسلين ـ أنذر قومك ألا يدخلوا بيتاً من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نقية وفروج طاهرة ، وألا يدخلوا بيتاً من بيوتى مادام لأحد عندهم مظلمة ، فإنى ألعنه مادام قائماً بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها ، فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى . ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

وقد اختار أهل العلم العبادة التى يقوم بها المسلم عند دخوله المسجد الحرام فاختاروا الأفضل لأهل الأمصار أى القادمين من بلادهم غير أهل مكة أن يطوفوا أفضل من الصلاة ، وأن الأفضل لأهل مكة الصلاة عند الكعبة .

وقد عبر القرآن الكريم عن المسافرين من بلادهم : « ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » وبالضرورة يكون أهل مكة هم حاضرو المسجد الحرام .

وهذا معقول ، فالمكى فى أى وقت يطوف . فالكعبة فى بلده الحرام .

وأهل الأمصار : وجودهم والطواف منهم هو العبادة التى تكون ثمرة لسفرهم وحضورهم البيت .

وقد ورد الخبر : « لولا رجال خشع ، وشيوخ ركع وأطفال رضع ، وبهائم رتع . لصبينا عليكم العذاب صباً » . وزاد لفظ المذنبين عند صب العذاب على المذنبين .

وفى حديث أبى ذر : « الصلاة خير موضوع ، واستكثر أو استقل » .

وقد جاءت الآية بعد ذلك : أن أمر الله ابراهيم وولده اسماعيل لطهارة البيت من الأصنام . أو الآفات والريب ، أو الكفار .

قال السدى فى بيان معنى أمر الله لهما : ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة .

وحكمة بيتى : إضافة البيت إلى الله تعالى للتشريف والتكريم من إضافة المخلوق للخالق وإضافة مملوك إلى المالك .

ومعنى : للطائفين : يعنى لمن يطوف به : أى للغرباء الطارئين على مكة .

والعاكفين أى المقيمين من بلدى وغريب . وفسر مجاهد العاكفين بالمجاورين .

وقيل المصلون . أو الجالسون بلا طواف .

والركع السجود : هم المصلون عند الكعبة .

وإنما ذكر الركوع والسجود لأنهما أقرب أحوال المصلى لله تعالى .

وخص الكعبة بالذكر بقوله تعالى « طهر بيتى » لأنها أعظم حرمة .

وروى عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه سمع صوت رجل فى المسجد الحرام فقال : ماهذا ؟ أتدرى أين أنت ؟ رحمك الله ياعمر فقد كنت سبباً فى اتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، ذلك المقام الطاهر فى ذلك البيت المعظم قبلة المسلمين ووجهتهم .

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن »

ذهب المفسرون إلى أنه فى أول البعثة كان فى الشريعة أن الصوم عبارة عن الامساك عن المفطرات نهاراً لا يقرب شيئاً منها بعد النوم ولا بعد صلاة العشاء الاخيرة فإذا فعل شيئاً منها بعد النوم أو بعد صلاة العشاء كان قد ارتكب محرماً ونسخ الله هذا الحكم بهذه الآية .

وقال أبو مسلم إن ذلك كان عند النصارى فنسخ ماكان عندهم عنا بهذه الآية .

وصلة عمر بن الخطاب بهذه الآية أنه كان سبباً فى نزولها ـ روى أبو داود عن ابن أبى ليلى قال : حدثنا أصحابنا قالوا : كان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح فجاء عمر بن الخطاب فأراد امرأته فقالت إنى قد نمت ، فظن أنها تعتل فأتاها فجاء رجل من الانصار فأراد طعاماً فقالوا حتى نسخن لك شيئاً فنام فلما أصبحوا أنزلت هذه الآية « أحل لكم ليلة الصيام الرفث » .

وروى فى سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبى ﷺ عشية وقد أجهده الصوم فسأل الرسول عن سبب ضعفه فقال : يارسول الله عملتُ فى

النخيل نهارى أجمع حتى أمسيت فأتيت أهلى لتطعمنى شيئاً فأبطأت على فنمت فأيقظونى وقد حرم الأكل فقام عمر بن الخطاب وقال : يارسول الله أعتذر إليك من مثله رجعت إلى أهلى . بعد ماصليت العشاء الآخرة فأتيت امرأتى فقال ﷺ : لم تكن جديراً ياعمر وقام رجال فاعترفوا بالذى صنعوا فنزل قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث » يعنى الافضاء إليهم .

وقال الطبرى : إن عمر رجع من عند النبى وقد سهر عنده ليلة فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له : قد نمت فقال لها : مانمت . فوقع بها ، وصنع كعب بن مالك مثله ، فغدا عمر إلى النبى ﷺ . فقال : أعتذر إلى الله وإليك فإن نفسى زينت لى فواقعت أهلى فهل تجد لى من رخصة ؟ فقال لى « لم تكن حقيقاً بذلك ياعمر » فلما بلغ بيته أرسل إليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن .

معنى الرفث :

والرفث أصله الفحش ويقال رفث فى كلامه وأرفث إذا تكلم القبيح ثم نقل من ذلك إلى ماكان منه بحضرة النساء مما ينم عن معنى الافضاء ثم جعل كناية عن معنى الجماع ومايتعلق به .

وقد أحله الله فى ليل رمضان للصائمين بعد أن كان محظوراً .

وتاب على عمر وأصحابه . قال تعالى « فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن » .

يعنى قبل التوبة من خيانتهم لأنفسهم وقبل التخفيف فى « عفا عنكم » أى العفو عن الذنب أو التسهيل والتوسعة « وعلم الله » معناه على وقوعه منكم مشاهدة فتاب عليكم بعد الوقوع .

وهكذا تكون العناية المنزلة ـ خان عمر نفسه فجعلها الله شريعة وخفف من أجله عن الأمة فرضى الله عنه وأرضاه . فقد أحل الله الجماع فى ليل الصيام فى رمضان وكان محرماً . قال تعالى « فالآن باشروهن » يعنى الجماع ، وسمى الجماع مباشرة لتلاصق البشرتين فيه . وهذا واضح فى أن سبب الآية جماع عمر .

رحمك الله ياعمر فقد كنت بعد رسول الله رحمة للمسلمين .

« عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً »
« أردن الله ورسوله »

اتفق عمر مع جار له من الانصار على أن يتناوبا الحضور عند رسول الله ﷺ ، يوم يحضر عمر واليوم الذى يليه جاره ، على أن يلم كل منهما ماكان من الوحى والتشريع والهدى الذى يمتلىء به مجلس النبى ﷺ ، فلا يفوت أحدهم شىء مما يكون .

وفى يوم كانت نوبة الانصارى ليعود فيحدث عمر بما سمع ووعى . شعر عمر بطرقات شديدة على بابه أفزعته . فنهض ليلقى صاحبه فوجده مكفهر الوجه ، وهاله منظره فابتدره بالسؤال : هل أغارت قبائل غسان من الشام على المدينة غازين . وتذكر مع هذا الخاطر أن فرصة جديدة لجهاد فى سبيل الله قد اتيحت ، وقاطعه صاحبه ليقول له : إن أمراً أعظم من ذلك كان . ثم قال : طلق رسول الله نساءه .

وردد عمر فى نفسه أن هذا الأمر كان يبدو حصوله . وأول ماكان يُلام فى نظره ابنته حفصة إحداهن ، وهى ابنته وكان يملك أن يمنعها من هذه الفاجعة .

فأسرع يصحب جاره إلى مسجد النبى ﷺ . وكان حديث بينه وبين حفصة فى هذا الأمر منذ أيام قد وقع ، وله سبب عادى يحصل كثيراً بين الأزواج فقد لطم زوجته وراجعته القول ، فهم أن يكرر ماوقع ، فرفعت صوتها : لماذا تنكر أن تراجعك

زوجة . والله إن زوجات النبى يراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ماتكلمه .

وكان عمر يحب رسول الله كما أسلفنا حب عقل أعظم من حبه لنفسه ، وماكان يود أن يلقى رسول الله ﷺ من مغاضبتهن مايعكر صفوه . ويستبعد حصول ذلك .

وقد كان كثير الملاحظة لأمهات المؤمنين لتكون كل واحدة منهن موئل راحة ورضا .

ويبعد عما يكدره ويغير خاطره . ولذلك كان من موافقاته الوحى أن قال له : مر نساءك يحتجبن فإنه يدخل عليك البار والفاجر . فنزلت آية الحجاب .

وقد خرجت سودة لبعض شأنها فنادى عمر : عرفناك ياسودة ، وكانت أطولهن ويقصد أن يكون الحجاب أكثر . وذلك أهم أمر لغيرته رضى الله عنه على الأمهات حتى استكثرت ذلك زينب فقالت : وإنك علينا ياابن الخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا .

وقال عمر : قد خاب من فعل ذلك منهن .

وجمع ثيابه عليه ودخل على حفصة ابنته وسألها : أتغاضب إحداكن رسول الله فى يوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . فقال : خبت وخسرت . أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فيهلكك . لاتكثرى على رسول الله ولاتراجعيه فى شىء ولاتهجريه وسلينى مابدا لك ، ولايضرك أن كانت جارتك هى أوضأ منك وأحب إلى رسول الله .

ولقد أهمه أن تطالب ابنته كغيرها ببعض متع الحياة وزينتها ، وهذه نظرة عمر لرسول الله ﷺ أنه خاتم المرسلين وأنه فى هذا المقام تعلو مهمته فوق كل غرور فى الحياة ومتعها . وذلك مكانه ومقامه فى رسالته السامية ولا أن ينشغل عنها بهذه الصغائر .

ولكن ذلك نظره إلى مقام الرسول فى خصوص موقعه من هداية البشرية ونسى فى عميق حبه وسمو مهمة النبى (ص) أن الرسول (ص) بشر وأنه ببشريته لنسائه حقوق . لذلك كان يتحمل مايظهر منهن من صنف البشر ويغفر لهن ذلك .

وماذا كان ليلة شاع فى المدينة أن طلقهن دون استثناء . وكان عمر بالمسجد فصلى خلف النبى فجر يومه ينتظر الرسول بعد الصلاة ، بل بادر بعد صلاته مشربته الخاصة يعتزل فيها .

وعاد عمر إلى ابنته فوجدها تبكى بكاءاً مراً ، وسأل ابنته : ومايبكيك ياحفصة ؟ ألم أكن قد حدثتك فى ذلك ؟

وكـرر الأب سؤالـه المحزن : طلقكن رسول الله ؟ وقالت حفصة غير عالمة بما تقول : لا أدرى ماأقوله ـ وكأنها تحيل أباها على مكان الرسول ليقف على الأمر أو ليدلى بدلوه فى إصلاح الأمر .

هاهو ذا فى المشربة . فجلس يفكر ، ولكنه عاد إلى المسجد ليجد أناساً كثيرين باكين غلبهم الحزن . وماحدث يهم المسلمين أولاً من حيث أن الرسول ﷺ أحوج إلى الراحة والهدوء فى حياته المنزلية المباركة .

وثانياً : أن القبائل تنتسب إلى رسول الله (ص) بالمصاهرة قد شرفت بهذه الصلة الكريمة التى أكسبتهم الشرف والفخار برسول الله .

وأمهات المؤمنين قد ربطت كبار المسلمين برسول الله ﷺ وفى مقدمتهم أبو بكر وعمـر وهمـا وزيراه . وتصـور انقطاع عائشة وحفصة عن بيت النبوة تصور يسىء إليهما ، ويحرم كلا منهما من شرف الارتباط برسول الله ﷺ .

وكثرت الأحاديث التى جاءت بذلك الحادث من أوله .

فرواية تحكى أن الرسول أهديت إليه هدية فوزعها على زوجاته ، فرفضت السيدة زينب نصيبها فزادها مثله فرفضت فقالت عائشة : لقد أقمأت وجهك « أذلته » أن ترد الهدية فقال : لأنتن أهون على الله من أن تقمئننى ـ لا أدخل عليكن شهراً ثم اعتزلهن فى مشربته .

والواقع أنه ﷺ نبى ورسول يوحى إليه . وذلك فى مقام تعلو به أمهات المؤمنين فوق مستوى البشر المجرد عن شرف مصاهرته .

ولكن ماشاهدن من متاع ، ورأين عن حياة الناس أثار فى نفوسهن الرغبة فى بعض الخصام . فكان تمسكهن بذلك يستدعى درساً ترتفع به الأقدار ، بعد الحرمان من الأنس به والسماحة معه واللطف فى معاشرته . وامتداد ذلك مدة شهر كامل يوقظ فيهن المثل الأعلى والقدوة الحسنة والكمال اللائق بمقامه .

وذلك شأنهن على أن لذلك شأنه بعد :

أما عمر فإن حبه للرسول أثار فى نفسه الغضب على كل مايغير خاطره . فماذا كان حتى آثر الرسول الاعتزال ؟ .

لقد وجد غلاماً على باب المشربة . فرجاه الاستئذان له فى الدخول عند النبى فدخل ثم خرج فقال لعمر : ذكرتك له فصمت . وعاد عمر بعد ذلك يطلب الإذن ، وبعد التردد عاد الغلام ليخبره بإذن النبى له بالدخول ، فدخل فوجد النبى مضطجعاً على رمال حصير يباشر جسده وقد أثر بجنبه ، وهو يتكىء على وسادة حشوها ليف

مسلم وسأل : أطلقت نساءك ؟ فنظر إليه وقال : لا ، فكبر عمر . واستأنس فحكى أن المهاجرين كانوا يغلبون النساء . ثم قوموا على قوم فى المدينة تغلبهم نساؤهم . وقد تغيظ على امرأته فراجعته فأنكر مراجعتها ، فقالت : أتنكر أن أراجعك وإن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ويهجرنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : خابت حفصة وخسرت أفتأمن إحداهن أن يغضب الله لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت . فتبسم النبى ﷺ .

ثم قال : قلت : يارسول الله لورأيتنى وقد دخلت على حفصة فقلت لها : لا يضرنك إن كانت صاحبتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله منك ، فتبسم النبى ، فجلس عمر بعد أن رأى النبى يبتسم .

ورفع عمر بصره فى بيت النبوة وأقسم مارأى فيه شيئاً يرد البصر غير أهب ثلاثة . قال : فقلت يارسول الله أدع أن يوسع عليك وعلى أمتك ، فإن فارس والروم قد وسع عليهم فأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله . فجلس النبى فقال : أوفى شك أنت ياابن الخطاب . عجلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا . فطلب عمر أن يستغفر له النبى وقال عمر : إن كنت يارسول الله كرهت شيئاً من حفصة فطلقها فأنت والله أحب إلىّ من أهلى ومالى .

فقال الرسول : ياعمر : لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وذلك حب العقل ، فإن الانسان يحب ماينفعه ورسول الله أعظم نفعاً للعبد من كل شىء حتى من نفسه التى بين جنبيه . فهو يدعو العبد إلى ربه ومثوبته وجناته ومصالحه فى الدنيا والآخرة .

وذلك كله يجعل نبى الله أحب عند العبد من نفسه ، ونفس العبد تدعوه دائماً إلى مالا ينفعه ، كما يدعوه نبى الله إلى منفعته وخيره .

وأقسم عمر للرسول بأنه أحب إليه من نفسه . وقال النبى له بعد هذه : الآن ياعمر . يعنى الآن عرف الحق ووقف عليه وعمل به .

وانصرف عمر من عند النبى ﷺ وفى نفسه أنه لا يقوم مخلوق على مراجعة النبى ومخالفته ، فما الظن بهجر إحداهن له إلى الليل ؟

وقد قابل أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها فقال لها : ياأم سلمة « تكلمين رسول الله وتراجعينه فى شىء » ؟

فقالت أم سلمة : « واعجباه ـ ومالك وللدخول فى أمر رسول الله ونسائه . أى والله إنا لنكلمه فإن حمل ذلك كان أولى به ، وإن نهانا كان أطوع عندنا منك » .

يالله لعمر ـ إنه قد صدق فى حبه لنبيه ، وإيثاره بكل الحب وكل الطاعة وكل الاحترام وكل الإعزاز .

فيما مضى وهو يقترح على النبى ﷺ أن يحتجبن ـ ونزل القرآن بذلك وأحب أن يزداد شأن الحجاب عليهن فنادى : عرفناك ياسودة . يطلب المزيد من الحجاب عليهن . تتنبه أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بمثل هذه المقالة من أم سلمة : وإنك علينا ياابن الخطاب والوحى ينزل عليه فى بيوتنا ؟

لقد كان فرط حب عمر للرسول ﷺ يدعوه دائماً إلى أن يكون رسول الله ﷺ فى أحسن حالات الطمأنينة وأكمل أحوال السكن والمودة والرحمة . ولقد كانت له من بين الأمهات واحدة لها مكانه وهى أبنته حفصة .

وفى القريب من القول كان عمر يقول للرسول خسرت حفصة وخابت إذا راجعت رسول الله واعتزلته إلى الليل .

وأنه يقول لها : لا يغرنك صاحبتك (يقصد عائشة) إن كانت أكثر وضاءة منك .

وعرض عليها إن لزمها أمر يستدعى المراجعة والمغاضبة أن تقصده هو دون أن تشغل به رسول الله ﷺ .

فليست هناك علة يتحامل بها عمر على أمهات المؤمنين سوى حبه للرسول ورغبته الدائمة فى أن يكون هادىء البال طيب الخاطر ساكن القلب منشرح النفس بالسكن والمودة والرحمة .

وكان يقترح ويتحمل مايقال له ويعترض به عليه .

وربما شعر فى نفسه بالألم على تدخله فى أمور نسائه ﷺ ويغفر له هذا التصور وتلك النية أنه كان يريد تخليص حياته المنزلية من شوائب الكدر ومن شبهات الخلاف والنزاع . وقد شاهده يعتزلهن شهراً ، ووحدته فى هذا الشهر تعز على عمر وتشغل باله . وتكدر صفوه على من أحبه فوق حبه لنفسه التى بين جنبيه .

وأخذت الأيام التسعة تمضى يوماً فى إثر يوم والحجرات خاليات من النور محرومات من لطف العشرة ومشاهدة أنوار الرسول وبركات التنزيل . ونفحات جبريل بالوحى . وغاب عنهن حدبه وحنانه فى طوفه عليهن كل يوم حتى يستقر عند من لها ليلتها صاحبة الدور .

وفى القلوب والأنفس حنين يتساءل : كم مضى وكم بقى حتى يشرق عليهن من جديد .

ونزلت الآية : « ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها

فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ».

واخذ النبى فى التنفيذ وبدأ بعائشة وأفسح لها فى الاختيار بدون عجلة لتستشير أبويها .

وجاء الجواب : بدون أن تستأمر أبويها : أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ويمضى النبى الكريم إلى حفصة ويخيرها كما خير عائشة : وتسأل ماذا قالت عائشة ؟ فأخبرها فاختارت كما اختارت عائشة .

ومضى إلى سائر الأمهات وخيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وتلألأت الأنوار فى الحجرات من جديد .

ولم تخل العودة الحبيبة من ملاطفة وتدلل ، فقد كان النطق النبوى . لا أدخل عليكن شهراً . وقد عاد الرسول بعد تسع وعشرين يوماً . فقالت عائشة : ألم تكن قد أقسمت ألا تدخل علينا شهراً ؟ .

وقد أصبحت من تسعة وعشرين يوماً ، قالت إنها تعدها عدا . ومن التى تمضى مدة الهجر عليها دون حساب لزمنها وشعور بوحشة تمسها . فلا تشتبه عليها المدة أو تنسى فى أحداث الليالى قدرها . وتصادف أن كان شهرهن تسعا وعشرين ليلة ، وقد أخبرها بأن الشهر تسع وعشرون ليلة . وقد كان شهر الفراق هكذاً لياليه وتلك مدته

واستقبلت الأمهات طلعته البهية فعادت لهن الفرحة وأقبلت عليهن السعادة ووجدن فى لطف عشرته مالاتعوضه زينة الحياة الدنيا ، فكيف هى بجانب ابتسامة المصطفى وإشراق وجهه وبركات حديثه وانشراح صدره ؟ .

وعليك صلاة الله وسلامه ياخير خلق الله ، ياخاتم المرسلين ، ومن الأمهات السعيدات : الحب والولاء ، كل الحب وأكمل الولاء ، والشوق الذى أشعل شمسه جمالك وكمالك وأنار جانبه ما أضفاه ربك عليك ، وحولك من سماحة وجه وإشراق قلب وطيب خاطر . مرحباً بك فى كل خطوة نفس ونبضة قلب وفتحة عين .

وأهلاً يانبى الله تبذله الأمهات وقد استقبلت القلوب العشرة بحبك الغالى ، الذى كل واحدة منهن نظرة يرق بها الجسد وقرت العيون وطابت الأنفس .

ولقد خفف عنهن جواره بالمشربة ، ورعاية فى كل جماعة فى مسجدك تقيمها ، وترتبط القلوب الوالهة برؤية طرف قميصك ، وفى كل راحة تردد فيها صدى صوتك بآيات التنزيل وعاد ورجع الصدى عليهن بالأمن عليك والأمان منك . إنهن لازلن أمهات ولن يحرم من شرف الانتساب إليك والإيناس بك والحشر معك . والشفاعة لنا والقبول منك والسلام .

فتبارك الله أحسن الخالقين

ومن موافقات عمر للوحى قوله سبحانه « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهذا القدر من الآية الكريمة آخر آية أطوار الخلق التى بينها الله سبحانه فى سورة المؤمنون وهى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وهذا معناه أن عمر رضى الله عنه ينفعل بكتاب الله وتأخذ الآيات بإعجازها بقلب عمر ويتدبر فيما تعطيه الآيات من حكمة بالغة ـ وفى هذه الآيات يدرك عمر بعد سماعه أول الآيات مايعطيه من عظمة الخالق وقدرة من أنزل هذا القرآن وعظمته وذلك ماجعله ينطق بما تدل عليه من جلال وقدرة ثم يأتى نطق عمر بما تعطيه الآيات من بركات الخالق وحسن الخلق وجماله ونهاية الجلال والكمال ، فتبارك ربى بما قال وتبارك الله الواحد بما صنع وأبدع من الابتداء بالسلالة الطينية ثم تحويله عز وجل من السلالة إلى النطفة وهكذا إبداع القدرة من النطفة للعلقة وصيرورة المضغة المحدودة عظاماً وكسوه للعظام باللحم إلى أن كان الانسان فى جمال خلقه .

وهكذا حتى استنطق الله عمر وهو إنسان جرت بخلقه تلك المراحل المعجزة بالثناء على الخالق ، وإدراكه من أعطى هذه الصنعة البديعة من المبدع القادر هو أحسن من خلق .

قال المفسرون : إن المراد بالانسان الذى خلقه الله هو آدم أبو البشر وبها أن البشرية كلها من آدم وآدم من تراب فكل فرد من أولاد آدم خلقه عز وجل بهذه المراحل التى جاءت بها آية الخلق فقد استل آدم من الطين .

والضمير فى « جعلناه » يعود على أولاد آدم ، وذلك لشهرة الأمر وإن لم يذكر .

والسلالة صفوة الماء وهو المنى ـ فالنطفة سلالة ، والولد سلالة وسليل يعنى أن الماء « المنى » يسل من الظهر سَلاً . وعبارة « من طين » يشير إلى أن أصل آدم وهو من الطين فآدم من طين خالص ـ وولد آدم من طين ومنى .

والنطفة : المنى (القليل من الماء ، والنطف القطر) .

والعلقة : الدم الجامد ـ والعلق الدم العبيط (الطرى) وهو شديد الحمرة .

والمضغة : هى اللحمة القليلة قدر مايمضغ ، وقد جاء فى الأخبار عن القلب : وأن فى الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب وهذه الأطوار من السلالة إلى المضغة أربعة أشهر .

يقول ابن عباس : العشر بعد الأربعة أشهر تنفخ الروح وذلك عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً .

عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر : أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها الملك بكفه فقال يارب أذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر بأى أرض تموت فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة فينطلق فيجد قصتها فى أم الكتاب فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت فى المكان الذى قدر لها ثم قرأ الراوى « **إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم . .** » .

وفى حديث أنس بن مالك أن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة ـ أى رب علقة ـ أى رب مضغة فإذا أراد الله ان يقضى خلقاً قال : قال الملك : أى رب ذكر أو أنثى شقى أو سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه .

وقد قالوا : إن جعل الشارع عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ـ لأن انقضاء أربعة أشهر والدخول فى الشهر الخامس بالعشرة أيام يحقق براءة الرحم وتنقضى به العدة ويثبت به لها حكم أم الولد .

قال ابن زيد : إن المخلقة وغير المخلقة المنصوص عليها فى آية أن المخلقة هى التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير المخلقة هى التى لم يخلق فيها شىء .

وقد حمل ابن عباس « المخلقة » الولد ماكان حياً ، وغير المخلقة : السقط .

والخلق الآخر المعبر عنه فى الآية بقوله تعالى « ثم أنشأناه خلقاً آخر » هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً . وفسره ابن عباس بأنه الخروج إلى الدنيا .

وقيل : نبات شعره - أو خروج الأسنان ونبات الشعر أو كمال شبابه .

وعن ابن عمر أنه عام من المنطق والادراك وحسن المحاولة وتحصيل العقولات إلى أن يموت .

- أما العبارة التى وافق عمر بها الوحى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى « خلقاً آخر » قال عمر : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال ﷺ : هكذا أنزلت .

وقد ردد المفسرون الروايات بين من قال هذه الجملة من عمر ومعاذ وعبد الله بن أبى سرح . قالوا : وبهذا ارتد ابن ابى سرح والعياذ بالله .

وقال : إنى آتى بمثل مايأتى محمد ، وفيه نزل « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله » .

وتبارك من البركة ، وأحسن الخالقين يعنى أتقن الصانعين .

قالوا : إن الله قال : أحسن الخالقين . مع أن الخلق يسند إلى الله لأن الله تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام بأن يخلق أو لأنها بمعنى الصنع ولأن اللفظة « الخلق » لا تنفى عن البشر بهذا المعنى وهو الصنع .

وإنما تمتنع عن البشر إذا أريد بها الاختراع والإيجاد من العدم .

قال ابن عباس لعمر رضى الله عنهما حين سأل عمر مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم . فقال عمر : ماتقول ياابن عباس ؟ فقال ابن عباس : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرضين سبعا وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه فى سبع فأراها أى ليلة القدر فى ليلة سبع وعشرين . فقال عمر : أعجزتم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذى لم تجتمع شئون رأسه ؟

فأراد ابن عباس : خلق الله آدم من سبع بهذه الآية وما بعدها من سورة عبس .

وبقوله : وجعل رزقه فى سبع قوله تعالى « فأنبتنا فيها حَباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً » .

السبع منها لابن آدم . والأَبُّ للأنعام والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء .

آية الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وفى سورة الواقعة قوله تعالى « ثلة من الأولين » . الواقعة آية ٣٩

عظم الله منازل أصحاب اليمين « الميمنة » وهم السابقون « ثلة من الأولين » وهم جماعة من الأمم السابقة .

وقليل من الآخرين ممن آمن بمحمد ﷺ .

وعن الحسن : ثلة ممن قد مضى قبل هذه الأمة وقليل من أصحاب محمد (ص) اللهم اجعلنا منهم بكرمك .

وسموا قليلاً بالاضافة إلى من كان قبلهم لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الايمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا .

وقيل لما نزل هذا شق على أصحاب رسول الله فنزلت « ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » فقال ﷺ « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الآخر الثانى » رواه أبو هريرة وذكره الماوردى ومعناه ثابت فى صحيح مسلم حديث عبد الله بن سمعود وكأنه أراد أنها منسوخة ، والأشبه أن تكون محكمة لأنها خير ولأن ذلك فى جماعتين مختلفتين .

قال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا فلذلك قال « وقليل من الآخرين » .

وقال فى أصحاب اليمين وهم سوى السابقين « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين »

ولذلك قال النبى ﷺ « إنى لأرجو أن تكون أمتى نصف أهل الجنة » ثم تلا قوله تعالى « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

قال مجاهد : كل من هذه الأمة .

وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ « الثلثان جميعاً من أمتى أى ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

وعن أبى بكر رضى الله عنه « كلا الثلثين من أمة محمد ﷺ فمنهم من هو فى أول أمته ومنهم من هو فى آخرها ، وهو مثل قوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » وقيل : ثلة من الأولين أى من أول هذه الأمة وقليل من الآخرين يسارع فى الطاعات حتى يلحق درجة الأولين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « خيركم قرنى » ثم سوى فى أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين .

والثلة من هذا الشىء من ثلث الشىء يعنى قطعته ، فمعناه كفرقة ، ثم ذكر الله سبحانه أحوال السابقين فى الجنة على سرر ـ يعنى مجالسهم على سرر « موضونه » قال ابن عباس معنى « موضونة » منسوجة بالذهب ، وقيل : مشبكة بالدرر والياقوت . قاله عكرمة . وقيل « موضونة » مصفوفة ، كما قال فى موضع آخر : مرمولة بالذهب بقضبان الذهب مشبكة بالدُّرّ والياقوت والزبرجد .

والسرير الموضون : المنسوج الذى دخل بعضه فى بعض « متكئين على سرر » متقابلين فلايرى بعضهم قفا بعض بل تدور بهم الأسرة وذلك فى المؤمن وأهله وزوجته ـ متكئين أى متقابلين طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد المؤمن أن يتكىء عليها تواضعت فإذا جلس عليها ارتفعت .

وقوله تعالى « يطوف عليهم ولدان مخلدون » أى غلمان لا يموتون قيل : ولا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل مخلدون مقرطون أو مسورون أو ممنطقون أو منعمون ـ علىّ سن واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما يشاء من غير ولادة .

وعن على كرم الله وجهه أن هؤلاء الولدان أولاد المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة .

وعن سلمان الفارسى : الولدان أطفال المشركين وهم خدم أهل الجنة .

وعن الحسن : لم تكن لهم حسنات يجزون بها ولا سيئات يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع .

والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة تتم باحتفاف الخدم والولدان بالانسان .

« بأكـواب وأبـاريق » : الأكـواب جمع كوب وهـى الأوانى التى لا عرى لها ولا خراطيم ـ والأباريق هى التى لها عرى وخراطيم سمراء لأنه يبرق لونه من صفائه .

« وكأس من معين » الجارى من خمر أو ماء والمراد هنا الخمر الجارية من العيون أو الظاهرة للعيون .

والخمر فى الـدنيا هى التى تستخـرج بعصر الحبات من العنب وتكلف وبذل ومعالجة لا تتصدع رءوسهم من شربها ـ فهى تحدث اللذة من غير ألم ولا أذى بخلاف خمر الـدنيا فإن الرأس تتصدع من شربها أو تسكر فتذهب العقول ، أما الخمر فى الآخرة فإنها لا تسكر .

وقيل : « لا يُصَـدَّعون» أى لا يتفرقون .

ولا ينزفون : أى لا ينفذ شرابهم ولا تفنى خمرهم .

وعن الحطيئة أن فى الخمر خصالاً أربع : السكر ـ الصداع ـ القىء ـ البول .

ثم إن الله ذكر الخمر فى الآخرة فنزهها عن هذه الأربع .

« وفاكهة ممايخيرون » فيتخيرون ماشاءوا لكثرتها .

قيل : وفاكهة مما يتخيرون أى وفاكهة متخيرة مرضية ولحم طير مما يشتهون .

روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ : ماالكوثر؟ قال : ذاك نهر أعطانيه الله تعالى فى الجنة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها مثل أعناق .

أسرى بدر

ذكر القرطبى حديث أسرى بدر فقال :

حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال :
لما كان يوم بدر جيىء بالأسارى وفيهم العباس فقال رسول الله ﷺ : ماترون فى هؤلاء الأسارى ؟

فقال أبو بكر : يارسول الله : قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم .

فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمك .

قال : فدخل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً .

فقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة .

وقال قوم يأخذ بقول أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وقال أناس يأخذ بقول عمر رضى الله عنه .

فخرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة مثلك ياأبا بكر مثل إبراهيم قال « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » .

ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى إذ قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

ومثلك ياعمـــر كمثـل نوح عليه السـلام إذ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً » .

ومثلك ياعمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق .

فقال عبد الله : إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام : فسكت رسول الله ﷺ .

قال : فما رأيتنى أخوف أن تقع علىّ الحجارة من السماء منى فى ذلك اليوم فأنزل الله عز وجل « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » إلى آخر الآيتين .

وفى رواية فقال رسول الله ﷺ : « إن كاد ليصيبنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب ـ ولو نزل عذاب من السماء ما أفلت إلا عمر » .

وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ يعنى رسول الله ﷺ الفداء أنزل الله عز وجل « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » إلى قوله تعالى « لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم » يعنى أخذتم من الفداء ثم أحل الغنائم .

وذكر القشيرى أن سعد بن معاذ قال : يارسول الله : إنه أول وقعة لنا مع المشركين فكان الإثخان أحب إلىّ والإثخان كثرة القتل .

وعن مجاهد وغيره : أى يبالغ فى قتل المشركين تقول العرب أثخن فلان فى هذا الأمر أى بالغ .

وقيل : حتى يقهر ويقتل وقيل : حتى يتمكن .

وقيل الإثخان : القوة والشدة . فأعلم الله سبحانه رسوله ﷺ أن قتل الأسرى الذين فدوا ببدر كان أولى من فداهم .

وقال ابن عباس : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ـ فلما كثروا ـ واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا فى الأسارى « فإما مناً بعد وإما فداءاً » فى سورة القتال .

وقيل : وإنما عوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك ـ ذلك كله عظيم الموقع فكان حقهم أن ينتظروا الوحى ولا يستعجلوا ـ فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجه عليهم ماتوجه والله أعلم .

وهذا الموضوع من أول موافقات عمر للوحى .

موقف الإسلام من الأسرى [1]

لقد أشار القرآن إلى مواقف متعددة بالنسبة للأسرى ، ولكنها غير متناقضة ، ففى أول الأمر نرى حضاً واضحاً على قتل الأسرى ، وعتاباً على أخذ الفداء منهم .

وذلك لأن المسلمين فى اول الأمر كانوا قلة ، والكفار كثرة ، فكانت الحاجة ماسة إلى كسر شوكة الكافرين آنذاك أكثر من حاجتهم إلى مال الفداء الذى يأخذونه من الكافرين قال تعالى مشيراً إلى ذلك : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مماغنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » [2] .

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال :

« استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر فقال :

« إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : « يارسول الله اضرب اعناقهم » ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس إن الله أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس ، فقام عمر فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم » فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال « يارسول الله نرى أن نعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء » قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء .

قال : وأنزل الله عز وجل « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » [3] .

وقد اختلف السادة المفسرون فى تفسير هذه الآية .

فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير « فيما أخذتم » : هى غنائم بدر قبل أن يحلها لهم .

---

١ ـ الفتوحات الربانية لفضيلة الاستاذ الدكتور الحسينى أبو فرحة ص ١٣٣ ومابعدها .

٢ ـ الأنفال : ٦٧ ـ ٦٩ .

٣ ـ الأنفال ٦٨ .

وقال الأعمش : لولا كتاب من الله سبق أن لا يعذب أحداً شهد بدراً لمسكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

وعن ابن عباس أيضاً : «لولا كتاب من الله سبق » يعنى فى أم الكتاب الأول أن الغنائم والأسارى حلال لكم . لمسكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

واختار ابن جرير هذا الرأى الأخير .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا القول الأخير ما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » .

هذا هو موقف الإسلام من الأسرى أول الأمر .

ثم لما كثر المسلمون وقويت شوكتهم أباح لهم الإسلام اختيار ماينا سبهم من أمور أربعة هى : القتل أو الاسترقاق أو المن أو أخذ الفدية .

لكن هذه الأمور إنما تكون بعد إرهاق الكافرين فى ميدان القتال ، والاستكثار من القتل منهم أثناء المعركة .

قال تعالى مشيراً إلى ذلك : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » [1] .

قال ابن كثير : « والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يوم بدر بقوله سبحانه : « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . . الآيات السابقة » [2] .

هذا ويؤخذ من مجموع آيات سورتى الأنفال ، والقتال فى شأن الأسرى :

أن الإمام مخير فى الأسارى بين ثلاثة من الأمور الأربعة السابق ذكرها ، هى القتل ، المن ، والفدية ، فمن أين جاء الاسترقاق ؟؟

والجواب : أن السنة العملية لرسولنا ﷺ زاخرة بذلك .

وهى البيان لعملى للقرآن الكريم ، ففيها أنه ﷺ وضرب الرقاق على الكثيرين من الاسارى .

ومن هؤلاء نساء وذرارى بنى قريظة . فقد حكّم فيهم سعد بن معاذ ، فحكم

---

١ ـ سورة محمد : ٤ .

٢ ـ ابن كثيرج ٤ ص ١١٧ .

أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم ، فقال له ﷺ : «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالاخاديد فخزت من الأرض ، وجيء بهم مكتفين . فضرب أعناقهم ، وكانوا مابين السبعمائة إلى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء [1] .

هذا موقف القرآن الكريم بالنسبة لمصير الأسارى . أما موقفه بالنسبة لمعاملتهم ماداموا بأيدينا قبل أن يصدر فيهم الإمام حكمه . فهو الرقة البالغة والكرم الزائد والعدة الطيبة إذا أسلموا مع الحذر التام منهم أيضاً .

قال تعالى « ياأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » [2] .

وقد وصى ﷺ بالأسارى خيراً فقال للمسلمين يوم بدر : « استوصوا بالأسارى خيراً » .

قال أبو عزيز أخو مصعب بن عمير ـ وكان أسيراً يوم بدر ـ « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر . فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز ، وأكلوا التمر [3] لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها . قال : فأستحى فأردها على أحدهم ، فيردها على مايمسها » [4] .

وهكذا أدب الإسلام العالى يتأدب به المسلمون . . وخلقه السمح يغمر حتى الاعداء ورحمته تشمل الجميع .

وبحسبنا هذا والله أعلم . . .

---

١ ـ ابن كثيرح ٣ ص ٤٧٨ ابن كثير . والمراد بمن لم ينبت : من لم يبلغ الحلم بعد .

٢ ـ الأنفال : ٧٠ .

٣ ـ كان الخبز يومئذ أحب وأغل وأشهى إلى القوم من التمر لكثرة التمر : وقلة الخبز .

٤ - ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٠ .

فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا مافى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما [1]

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان بين رجل من المنافقين يقال له : بشر وبين يهودى خصومه فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد .

وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله « الطاغوت أى ذو الطغيان » .

فأبى اليهودى أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ .

فلما رأى ذلك المنافق : أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى لليهودى .

فلما خرجا قال المنافق : لا أرضى . انطلق بنا إلى أبى بكر فحكم لليهودى فلم يرض ـ ذكر ذلك الزجاج ـ وقال : انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب فأقبلا على عمر فقال اليهودى : إنا صرنا إلى رسول الله ﷺ ثم إلى أبى بكر فلم يرض فقال عمر للمنافق : أهكذا هو ؟ فقال : نعم .

قال عمر : رويدكما حتى أخرج إليكما .

فدخل عمر وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد أى مات وقال : هكذا أقضى على من لم يرض بقضاء الله تعالى وقضاء رسوله ﷺ وهرب اليهودى ونزلت الآية .

وقال رسول الله ﷺ لعمر : أنت الفاروق .

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم ج ٥ ص ٢٦٤ ومابعدها .

ونـزل جبريل وقال إن عمر رضى الله تعالى عنه فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق وفى ذلك نزلت الآيات كلها إلى قوله تعالى « ويسلموا تسليما » .

ولما قتل عمر صاحبهم جاء قومه يطلبون ديته ويحلفون مانريد بطلب ديته إلاّ الإحسان وموافقة الحق .

والحكم فى الآية عام يشمل ما كان بين اليهودى والمنافق كما يشمل قصة الرجل من الأنصار مع الزبير والتسامح من الزبير وعدم استيفاء الزبير حقه كاملاً ـ وأن هذا الذى كانت الخصومة بينه وبين الزبير هل هو رجل من الأنصار من أهل بدر ؟

أم هو حاطب بن أبى بلتعة ـ وقيل إنه : ثعلبة بن حاطب والحاصل أن كل من اتهم رسول الله ﷺ فى الحكم فهو كافر ولكن الانصارى زل زلة فأعرض عنه النبى ﷺ وأقال عثرته لعلمه ﷺ بسلامة يقينه وأنها كانت فلتة وليست لأحد بعد النبى ﷺ وكلّ من لم يرض بحكم حاكم وطعن فيه فهى ردة يستتاب [1] ؟

وقصة الزبير والانصارى جاء فى سبب نزول الآية :

أن الزبير كانت له أرض يمر فيها الماء فله سقى أرضه ثم لا يمنعها من الجرى حتى تصل إلى الأرض التى أسفل منها بعد أن يستوفى أرضه .

فقد تحاكم الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فى شأن الماء اللازم لسقى أرضه والذى يملك الزبير حبس الماء حتى يستوفى الزبير حقه وقد سلك الرسول ﷺ مع الزبير والأنصارى مسلك الصلح .

فقال : إسقِ يازبير لقربه من الماء ثم أرسل الماء إلى جارك يعنى : تساهل فى حقك ولا تستوفه كاملاً وعجل فى إرسال الماء إلى جارك فحضه على المسامحة والتيسير .

فلما سمع الأنصارى ذلك لم يرض به وغضب لأنه كان يريد ألا يمسك الماء أصلاً وعند ذلك نطق بالكلمة الجائرة المهلكة الفاقرة فقال للنبى ﷺ : أن كان ابن عمتك ؟ على جهة الإنكار أى تحكم له عَلَىَّ لأجل أنه قرابتك فعند ذلك تلون وجه رسول الله ﷺ غضباً عليه .

فحكم للزبير باستيفاء حقه من غير مسامحة له .

وقـد حكم نبى الله ﷺ وهـو غضبان مع أنه نهى عن الحكم فى الغضب بقوله « لا يقضى القاضى وهو غضبان » لأنه معصوم من الخطأ فى التبليغ والأحكام بدليل العقل الدال على صدقه فيما يبلغه عن ربه فهو ليس كغيره من الحكام .

---

١ ـ وتفصيل ذلك فى سورة الأعراف .

وكان حكمه الأول صلحاً فإن أصطلحوا فبها وإلا استوفى صاحب الحق حقه وثبت الحكم .

وسنته ﷺ تشريع بالقول والفعل والتقرير .

وعلى طائفة أخرى فى سبب نزول الآية « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » الآية ٦٥ من سورة النساء .

نزلت فى الزبير مع الأنصارى وكانت الخصومة فى سقى بستان فقال ﷺ للزبير « اسق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك » وهذا هو الحكم بالصلح .

فقال الخصم : أراك تحابى ابن عمتك فتلون وجه النبى (ص) .

وقال للزبير : اسق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر أى مارفع حول المزرعة كالجدار .

ونزل « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّمُوك فيما شجر بينهم » وهذا الحديث رواه البخارى عن على بن عبد الله عن محمد بن جعفر عن معمرة رواه مسلم عن قتيبة وكلاهما عن الزهرى (قال عبد الله بن أبى بن سلول فى مسألة خروجهم إلى العدو خارج المدينة فى بدر : لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها عدونا وندع النساء والأطفال فى هذه الصياصى ومعهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية فإذا أقبل العدو رمته النساء والأطفال بالحجارة وقابلناه بالسيف فى السكك .

إن مدينتنا عذرة لم تفض علينا قط ومادخل علينا عدو فيها إلا أصبناه وما خرجنا إلى العدو إلا أصابنا فدعهم يارسول الله وأطعنى فى هذا الأمر من أكابر قومى وأهل الرأى منهم) .

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم « الكافرون » و« الظالمون » و« الفاسقون » نزلت كلها فى الكفار ثبت ذلك فى صحيح مسلم من حديث البراء وعلى هذا معظم العلماء .

فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة .

وقيل فى الكلام إضمار يعنى ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًّا للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر . عن ابن عباس فالآية عامة على هذا .

وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين - واليهود - والكفار أى معتقداً ذلك ومستحلاً له .

فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

وفى رواية عن ابن عباس « ومن لم يحكم بما أنزل الله » فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار .

وقيل ومن لم يحكم بما أنزل الله أى بجميع ما أنزل الله فهو كافر فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل فى هذه الآية .

وخصَّ الشعبى اليهود خاصة واستدل على هذا بثلاثة أمور .

وقيل : الكافرون للمسلمين ، الظالمون[1] لليهود والفاسقون للنصارى لأنه ظاهر الآيات واختيار ابن عباس - وجابر بن زيد وابن أبى زائدة وابن شبرمة والشعبى أيضاً .

وقال طاووس وغيره : ليس الكفر المذكور كفرا ينقل عن الملة ولكنه كفر دون كفر - أى كفر المسلم ليس مثل كفر غيره من الكفار وهو مختلف .

إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر .

وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل السنة فى الغفران للمذنبين .

وقال الحسن : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء .

١ - ألا يتبعوا الهوى .

٢ - وألا يخشوا الناس ويخشوه .

٣ - وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً .

---

١ - الجامع لأحكام القرآن الكريم ج ٦ ص ١٥٠ سورة المائدة .

الاستئذان لدخول البيوت

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » .

هذه الآية هي الآية السابعة والعشرون من سورة النور - التي تضمنت من الآداب الإسلامية التي أدب الله بها عباده بما يرجع إلى الستر عليهم خشية أن يطلع أحد منهم على عورة .

وقالوا في سبب نزولها أن الله تعالى لما خصص ابن آدم الذي كرمه وفضله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار وملكهم الإستمتاع بها على الانفراد وحجر على الخلق أن يطلعوا على مافيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها - لما أنعم على عباده بما سبق - أدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم الخ .

ومعنى الآية تأديب رباني . لكمال علو الناس - وتمام أدبهم ووافر تكريمه لهم وتفضيله بسترهم .

وذلك مما يعود إلى حسن السلوك الذي يجب أن يراعيه المأمور بالأدب . ليراعيه كذلك غيره في معاملته . واستئذانه .

وقد ورد بالاستئذان حديث نبوي بين عمر وأبي موسى الأشعري وهو مارواه أبو موسى يعتذر عن موعد له معه .

وطلب التثبت من صحته وروايته كعادته دائماً في كل مايروى لعمر - ولم يكن قد سمعه - وقد استشهد أبو موسى بمن صدقه في رواية الحديث .

والاستئذان له وضع أكبر من مجرد أنه أدب وسلوك وحسن ويشير إليه ما جاء في صحيح مسلم عند أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من اطلع فى بيت قوم من غير إذنهم حل لهم أن يفقأوا عينه » .

وللعلماء آراء في تأويل معناه .

ليس هذا على ظاهره . فإن فقأوا فعليه الضمان والخبر منسوخ كان قبل نزول قوله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به » كما يحتمل أن يكون هذا الكلام خرج مخرج الوعيد وليس على وجه الحتم . وإذا كان الخبر مخالفاً للقرآن فلا يجوز العمل به .

وكان ﷺ يتكلم وهو لا يريد ظاهره - بل كان يقصد أمراً آخر مثل قوله لبلال « قم فاقطع عنى لسان عباس بن مرداس » فلم يقصد قطع لسانه بالفعل - بل أراد أن يدفع له شيئاً يسكته .

وهنا المراد من فقء العين . أى عمل يصرفه عن النظر فى بيت غيره .

وقال بعضهم إن من ينظر لا ضمان عليه ولا قصاص لحديث أنس الآتى .

سبب نزول الآية :

مارواه الطبرى عن عدى بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت يارسول الله : إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى أحد عليها لا والد ولا ولد فيأتى الأب فيدخل على وأنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال فكيف أصنع ؟

فنزلت الآية فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله : أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن فأنزل الله : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة » .

وقد مد الله التحريم فى دخول بيت ليس بيتك للغاية هى الاستئناس وهو الاستئذان . قال مالك « الاستئناس والله أعلم هو الاستئذان » .

وهو قراءة أبىّ وابن عباس وسعيد بن جبير « حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها » .

وقيل المعنى : تستعملوا بالتنحنح أو بأى وجه أمكن ويتأنى قدر مايعلم أنه قد شعر به ويدخل بعد ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى « فإن آنستم منهم رشداً » يعنى علمتم [1] .

وفى سنن ابن ماجه : يارسول الله هذا السلام فما الاستئذان ؟

---

١ - ج ٥ ص ٣٦ القرطبى .

قال : يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة وتحميدة ـ ويتنحنح ويؤذن أهل البيت ـ وهذا يدل على إن الاستئناس غير الاستئذان .

وقال عمر للرسول ﷺ : استأنس يارسول الله وعمر واقف على باب الغرفة ـ وهذا يقتضى أن عمر طلب الأنس به ﷺ .

مرات الاستئذان

قال المفسرون: إن السنة فى عدد مرات الاستئذان أنها ثلاث مرات لا يزاد عليها .

وروى ابن وهب عن مالك : الاستئذان ثلاث لا أحب أن يزاد عليها إلا من علم أنه لم يسمع فإنى لا أرى بأساً أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع .

أما صورة الاستئذان فهى أن يقول الرجل السلام عليكم أأدخل ؟ فإن أذن له دخل ـ وإن أمر بالرجوع انصرف وإن سكت عنه استأذن ثلاثاً ـ ثم ينصرف بعد الثلاث ويدل على ذلك حديث أبى موسى مع عمر وشهد به لأبى موسى أبو سعيد الخدرى ـ ثم أبىّ بن كعب فقال عمر له : مامنعك أن تأتينا ؟ فقلت : أتيت وسلمت على بابك ثلاث مرات فلم ترد على فرجعت وقد قال ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » .

وقال ﷺ لخادم له : اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان لرجل من بنى عامر .

فقال الخادم : قل له السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له فدخل .

وحكمة تكرار الاستئذان ثلاثاً لأنه إذا كرر سمع وفهم وكان سنته (ص) أنه إذا تكلم الكلمة ، أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه وإذا سلم على قوم سلم ثلاثاً .

فإذا لم يأذن صاحب المنزل بعد الثلاث ظهر أنه لا يريد الإذن أو لعله صاحب عذر يمنعه من الإذن للضيف ولا يمكنه أن يقطع هذا العذر ـ والتطويل يتعب صاحب المنزل ـ ويضره الإلحاح عليه والسنة أن يسلم ثلاث تسليمات لأن الرسول ﷺ أتى سعد بن عبادة فقال : السلام عليكم فلم يردوا ثم قال ﷺ : السلام عليكم ـ فلم يردوا فانصرف ﷺ فلما فقد سَعْد تسليمه عرف أنه قد انصرف فخرج سعد فى إثره حتى أدركه فقال « وعليك يارسول الله إنا أردنا أن نستكثر من تسليمك وقد والله سمعنا » فانصرف رسول الله مع سعد حتى دخل بيته .

قال ابن شهاب : فإنما أخذ التسليم ثلاثاً من قبل ذلك عن أسعد بن زرارة عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد رداً خفياً ـ فقلت : قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام .

روى عن ابن عباس : أن الاستئذان ترك العمل به الناس وذلك لاتخاذ الناس الأبواب وقرعها .

وقال عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ـ ولكن من ركنه الايمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم ـ السلام عليكم ـ فالدور لم يكن عليها حينئذ ستور فإذا كان الباب مردوداً فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن وإن شاء دق الباب لرواية أبى موسى أن رسول الله كان فى حائط بالمدينة على قف بئر ـ فمد رجليه فى البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ « إئذن له وبشره بالجنة » والدق هو الخفيف الذى يسمع ولا يعنف فى ذلك فقد روى أنس قال : كانت أبواب النبى ﷺ : تقرع بالأظافير .

وعن جابر بن عبد الله قال استأذنت على رسول الله فقال من هذا ؟

فقلت : أنا ـ فقال النبى ﷺ : أنا ـ أنا ـ كأنه كره ذلك وقد كره النبى ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف ـ وإنما الحكم فى ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمرو أبو موسى لأن فى ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب وقد ثبت عن عمر أنه أتى النبى وهو فى مشربة له فقال : السلام عليك يارسول الله ـ السلام عليك أيدخل عمر ؟ وفى صحيح مسلم أن أبا موسى جاء إلى عمر فقال : « السلام عليكم هذا أبو موسى السلام عليكم هذا الأشعرى » .

وفى رواية : أنه كره الجواب : بأن قال : مالى صديق اسمه أنا ـ وفى أخرى قوله : أنا ـ أنا ، كأنه كره القول بذلك .

فأما بيتك الذى تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها إلا أن تسلم إذا دخلت .

وقال قتادة : إذا كنت فى بيتك فسْلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليهم .

وقال مالك : ويستأذن الرجل على أمه أو أخته إذا أراد أن يدخل عليها ـ وقال النبى لمن سأله أن يستأذن على أمه قال نعم ـ وقال إنى أخدمها .

قال : استأذن عليها فعاوده ثلاثاً وقال أتحب أن تراها عريانة قال : لا . قال : استأذن عليها.ومن دخل بيت نفسه وليس معه أحد يقول السلام علينا من ربنا .

الحجاب

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

قال المفسرون : إن هذه الآية تضمنت قصتين : قصة :

١ ـ الأدب فى الطعام والجلوس .

٢ ـ القصة الثانية : الحجاب .

وقد عبر بعضهم عن المقصود بالأولى بالثقلاء . وسبب النزول بالنسبة للأمر الأول أن الرسول ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش ارملة زيد أولم النبى عليها فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت الرسول ﷺ وزوجته مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ .

قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبى ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى قال : فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب ، قال : ووعظ القوم بها وعظهم به وأنزل الله عز وجل « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلى قوله تعالى : إن ذلكم كان عند الله عظيمًا » .

وقال قتادة : إن هذا السبب وقع فى بيت أم سلمه .

وقيل : إن السبب أن قوماً كانوا يتحينون أوقات الطعام فيدخلون قبل أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون فأدبهم الشرع . قيل : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

وأما قصة الحجاب : قلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت الآية ، كما روى قول عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام ابراهيم وفى الحجاب وأسارى بدر . وهذا أصح ماقيل فى الحجاب .

وقيل : إن عمر لما أمر بذلك قالت له زينب بنت جحش إنك تغار علينا ياابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا فأنزل الله « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » .

وقد ضعفه القرطبى وقال : إن الحجاب نزل يوم البناء بها ـ وقيل : إن النبى ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصاب يد رجل منهم يد عائشة فكره رسول الله ﷺ فنزلت آية الحجاب .

وحكى ابن عطية ما كان عندهم فى هذا الوقت وهو أن سيرتهم إذا كان لهم وليمة أن يبكروا إلى الاجابة ينتظرون نضج الطعام وإذا أكلوا جلسوا بعد ذلك فنهى الله المؤمنين عن ذلك فى بيت النبى ﷺ .

وقد شمل النهى جميع المؤمنين .

وقد التزم الناس أدب الله تعالى لهم فى ذلك فمنعهم الدخول إلا بإذن عند الطعام وليس قبله انتظاراً لتجهيزه .

وإضافة الله تعالى البيوت للنبى ﷺ إضافة ملك لأن صدور الإذن إليه يستلزم أن يكون الإذن لمن يملكه ، أما إضافة البيوت إلى الأزواج فهى إضافة محل ـ وهو محل استقرارهن والعيش فيه ، وبيوته ﷺ إذا سكنه أهله بعد موته تقتضى تملكهن لها ، فقد سكنّ فيها بعد وفاته حتى توفاهن الله وقد وهب لهن البيوت حين حياته .

وقيل باعتبار البيوت سكنى لهن ، وقد استثنى لهن ﷺ البيوت والنفقة وهما (البيوت والنفقة) من مئونتهن ، قال ﷺ « لاتقتسم ورثتى ديناراً ولا درهما ماتركت بعدى نفقة لأهلى ومئونة عيالى فهو صدقة » .

ويقويه أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثة ، ولو كانت أملاكاً لهن لورثها الورثة بعدهن فذلك دليل على عدم الملكية ، فكان لهن السكن حياتهن ، وبعد وفاتهن جعل زيادة فى المسجد لمنفعة المسلمين فتعمهم وكذلك ما كان نفقة لهن حيث تحول إلى منافع المسلمين فعمهم جميعاً نفقة .

وجملة غير ناظرين إناه : معناه لا تنتظرون وقت نضج الطعام .

وعبارة « ولكن إذا دعيتم فادخلوا » معناه أن الإذن فى وقت الدخول على جهة الأدب وحفظ الحضرة الكريمة ـ والمعنى إذا دعيتم وأذن لكم بالدخول فادخلوا .

« وإذا طعمتم فانتشروا » أى بعد الطعام يتفرق الجمع وتنتشر أفراده فالخروج ملتزم بعد المقصود وهو الطعام . والأصل أن الدخول حرام وإنما جاز للأكل فمتى انقضى فلا إباحة .

والآية تدل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على نفسه لقوله « فإذا اطعمتم فانتشروا » فليس له إلا الطعام ولم يضف إليه سواه فبقى الملك على حاله فلا تمكثوا مستأنسين للحديث كما حصل أصله من الصحابة فى وليمة زينب .

« إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق » ومعنى لا يستحى فى جانب الله تعالى أنه لا يمتنع عن إظهاره وبيانه .

ووقوع الاستيحاء من الناس علة من حق البشر وقد نفى عن الله التعليل الموجب لذلك لأنه ليس مثل البشر فيعلل بها يعللون به لهم .

وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت : هل على المرأة من غسل إذا احتلمت فقال رسول الله : نعم إذا رأت الماء .

وقالت أم سلمة أو تحتلم المرأة ؟ فقال : تربت يداك فبم يشبهها ولدها ؟

ثم جاء الأمر « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » فالعرب كانوا أهل تقشف وضنك .

وفى الجاهلية كانت المرأة تلبس مايظهر منهن ومايقبح إظهاره وكانت تلبس الدرع من لؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الرقاق ولا توارى بدنها وكن يتمشين بين الرجال وهذا هو المراد من الجاهلية الأولى وكان أمر النساء دون الحجاب .

ولا شك أن الجاهلية كانت قبل الاسلام والأمر فى الاسلام مخالف ما كان من النشأة على تقبيح وتكسير وإظهار المحاسن للرجال ولهذا أمر « وقرن فى بيوتكن » وهذا على الايجاب وقال : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى فنهى عن التقبيح » .

فإن دعت الحاجة إلى خروج فليكن على تبدل وتستر تام .

وقد ذكر القرطبى عن الثعلبى أن عائشة كانت إذا قرأت هذه الآية تبكى حتى تبل خمارها . وذكر أن سودة قيل لها : لم لا تحجين مع أخواتك من أمهات المؤمنين وكان عمر يحج بهن كل عام ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت وأمرنى الله بأن أقر فى بيتى ، قال الراوى : فوالله ماخرجت من حجرتها حتى أخرجت جنازتها رضى الله عنها ، وقد رجت النبى فى أن تبقى فى شرف النسبة إليه ووهبت لعائشة نوبتها .

« وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » عن أنس بن مالك قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع وقال فيه : قلت يارسول الله لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله عز وجل « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » .

ومعنى المتاع مختلف فيه فقيل : مايتمتع به من العوارى التى تتداول بينهم . وقيل : الفتوى منهن . وقيل : صحف القرآن ، والأولى أنه عام فى جميع مايمكن أن يطلب من المواعين وكل المرافق الدينية والدنيوية .

وقد دلت الآية على أن الله أذن فى مسألتهن من وراء حجاب فى حاجة تعرض أو مسـألـة يستعان بها . وجميع النساء داخلون فى هذا الحكم بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها .

وقد استدل الفقهاء بأخذ الناس عن أزواج النبى ﷺ من وراء حجاب على أن الأعمى تجوز شهادته وبأنه يحل له أن يطأ زوجته بمعرفته كلامها ، وجواز شهادته عند أكثر العلماء ، وقال أبو حنيفة والشافعى بعدم جوازها ، وإن جوزها أبو حنيفة فى الأنساب ، وقيد الشافعى جواز شهادته فيما أبصره قبل ذهاب بصره .

وقوله تعالى « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » من الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء وللنساء فى أمر الرجال فذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى فى الحماية .

ويدل ذلك على أنه لا يجوز لأى شخص أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه . وروى قتادة أن رجلاً قال : لوقبض رسـول الله ﷺ تزوجت عائشة فأنزل الله تعالى « وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » . ونزلت « وأزواجه أمهاتهم » .

قال ابن عباس أن رجلاً من قريش وسادتها ومن العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراء قال فى نفسه لو توفى رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة وهى بنت عمى - قال مقاتل : هذا الرجل طلحة بن عبد الله .

وقال ابن عباس : وندم هذا الرجل على حديث النفس هذا فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله واعتق رقيقاً فكفر الله عنه .

وروى ابن عطية أن الآية نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتأذى به ، هكذا كنى عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكى عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبد الله ،

وقد استبعد هذا الخاطر ابن عباس نفسه على طلحة قالوا : وحاشاهم عن مثل ذلك وإنما الكذب فى نقله ، وإنما ذلك من شأن الجهال المنافقين .

وروى أن رجلاً من المنافقين قال : حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة ، مابال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت الآية فى هذا ـ فحرم أزواجه من بعده وجعل لهن حكم الأمهات وذلك من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ .

قال الشافعى رحمه الله تعالى : وأزواجه ﷺ اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد أن ينكحهن ومن استحل ذلك كفر لقول الله عز وجل « وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » .

وقيل إنما منع الله من التزوج بنسائه لأنهن أزواجه فى الجنة وأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لا مرأته : إن سرك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تتزوجى من بعدى فإن المرأة لآخر أزواجها .

وقد ذهب العلماء إلى أن أزواجه من بعده عليهن العدة لأنه توفى عنهن والعدة عبادة .

وفى قول آخر لا عدة عليهن لأن العدة مدة تربص لا ينتظر بها الاباحة قالوا : وهو الصحيح لقوله ﷺ : « ماتركت بعدى نفقة عيالى » وهو تعبير خاص بالزوجية فأبقى لهن النفقة والسكن مدة حياتهن لكونهن نساءه وحرمن على غيره وهو معنى بقاء النكاح والموت فى حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب لكونهن أزواجه فى الآخرة بخلاف سائر الناس .

وقد ورد عنه « زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة » .

وقال : كل سبب أو نسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة .

وذلك ظاهر من واقع حياتهن بعده فإن أية واحدة منهن لم تفكر فى زواج بعده ولم يفكر أحد أيضاً فى ذلك بالنسبة إليهن .

عمر وابن أبىّ بن سلول

قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

قال ابن كثير عن الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن اسحاق عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول :

لما توفى عبد الله بن أُبىّ دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره فقلت يارسول الله : أعلى عدو الله عبد الله بن أبى زيد القائل يوم كذا وكذا يعذر أيامه قال : رسول الله ﷺ بيقسم حتى أكثرت عليه .

قال : أخر عنى ياعمر - إنى خيرت فاخترت قيل لى : « استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

لو أعلم أنى ان زدت على السبعين مرة غفر له لزدت .

قال : ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه .

قال : فعجبت من جرأتى على الرسول ﷺ والله ورسوله أعلم .

قال : فوالله ماكان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الأيتان « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتواوهم فاسقون »[1].

---

١ - الآية ٨٤ من سورة التوبة

فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل وهكذا رواه الترمذى فى التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهرى به قال : حسن صحيح ورواه البخارى عن يحيى بن بكر عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله وقال : أخر عنى ياعمر ، فلما أكثرت عليه قال : إنى خيرت فاخترت ولو أعلم أنى إن زدت عن السبعين يغفر له لزدت عليها .

قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يزد إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله [1] أعلم .

وقال تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

يقول ابن كثير : يخبر الله تعالى رسوله ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار - وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها ولا يريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقيل : بل لها مفهوم كما روى العونى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ .

قال : لما نزلت هذه الآية أسمع ربى قد رخص لى فيهم - فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة الغضب عليهم : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وقال الشعبى : لما ثقل عبد الله بن أبى الطلق أتى ابنه إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى قد احتضر فأحببت أن تشهده وتصلى عليه .

فقال النبى ﷺ : مااسمك ؟ قال الحباب بن عبد الله قال : بل أنت عبد الله ابن عبد الله - إن الحباب اسم الشيطان - قال : فانطلق معه حتى شهده ، وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل : تصلى عليه وهو منافق قال : إن الله تعالى قال : « إن تستغفر لهم سبعين مرة » ولأستغفرن له سبعين وسبعين وكذا روى عن عروة بن الزبير - ومجاهد بن جبر - وقتادة بن عامر رواها ابن جرير [2] بأسانيده .

قال ابن إسحاق حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله

---

١ - تفسير ابن كثير المجلد الرابع / ١٣٣

٢ - تفسير ابن كثير المجلد الرابع ١٢٨

ابن أبى فيها بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمر لى به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مسلماً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : بل تترفق به وتحسن صحبته مابقى معنا وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه فيأخذونه ويعتقونه فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنه كيف ترى ياعمر أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن ابنه عبد الله رضى الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أبى بن سلول عند مضيق المدينة فقال : قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بذلك .

فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه فى ذلك فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة .

سلطان الإيمان

رزق الله سبحانه وتعالى الايمان فى القلب . وإذا سرى تيار الايمان إلى قلب المسلم وانصهرت نفسه به لم يكن الأب أو الابن أو الزوج أو العشيرة أعز على المسلم من إيمانه فكم وقعت الوقائع التى برز الرجل لأبيه . أو لأمه أو لأخيه إيثاراً لإيمانه على أى إنسان .

ومن ذلك عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين فى دار الهجرة الذى أساء إلى النبى ﷺ والمسلمين ومماحكاه لنا القرآن الكريم فى تحريضه أتباعه على المسلمين .

قال « لا تنفقوا على من عند رسول الله » وهم المجاهدون . وقد آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ـ وقد مدحهم الله لإكرامهم المهاجرين حتى إنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وتستبين حكمة الله فى عدم تكليف المسلمين بالجهاد وقتال غير المسلمين الذين كانوا يتربصون بالنبى ﷺ ومن آمن به الدوائر ـ واستمر اعتداؤهم عليهم والتجمع لهم حتى وصلوا إلى جدار منازلهم وكان المسلمون يطلبون من النبى ﷺ الإذن بالقتال دفاعاً عن أنفسهم فأبى ذلك .

وأمر بالصبر والصفح والعفو وذلك خشية أن يكون الانتصار باليد ذريعة إلى وقوع ماهو أكثر وأعظم مفسدة عن الصبر والإغضاء . واحتمال الضيم .

فقد غلبت مصلحة حفظ أنفسهم ودينهم وذريتهم على مصلحة الانتصار والمقابلة بين العدو المعتدى وبينهم ولهذا قال تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » .

والمثال الآتى من عدم ارتكاب كبيرة من الكبائر :
وقد روى البخارى عن ابن عمر :
قال القرطبى : إن الآية « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » .
روى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن ابىّ بن سلول وصلاة النبى عليه ثبت فى الصحيحين وغيرهما وتظاهرت الروايات بأن النبى ﷺ صلى عليه وأن الآية نزلت بعد ذلك .
وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لما تقدم ليصلى عليه جاءه جبريل فجذب ثوبه وتلا عليه « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً .
وفى البخارى عن ابن عباس قال : فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلّا يسيراً حتى نزلت من براءة « ولا تصل على أحداً منهم مات أبداً » .
ونحوه عن ابن عمر : لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفنه فيه فاعطاه .
ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيرنى الله تعالى فقال : « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة » وسأزيد على سبعين .
قال: إنه منافق. فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل « ولا تصل على أحد منهم » فترك الصلاة عليهم .
قال بعض العلماء إنما صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بناءً على الظاهر من لفظ إسلامه ـ ثم لم يكن يفعل ذلك لما نهى عنه .
قيل : كيف قال عمر : أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ولم يكن تقدم نهى عن الصلاة عليهم ؟
قيل : يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره ويكون ذلك من قبيل الإلهام والتحدث الذى شهد له به النبى ﷺ وكان القرآن الكريم ينزل على مراده كما قال : وافقت ربى فى ثلاث وجاء فى أربع [1] .
ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى « استغفر لهم أولا تستغفر لهم » لا أنه كان تقدم نهى على مادل عليه حديث البخارى ومسلم .
وقال عمر للنبى ﷺ لما أراد أن يصلى على ابن سلول : لا تصلى على عدو الله القاتل كذا ـ وكذا يوم كذا .

١ ـ تفسير القرطبى ج ٢ ص ١١٢ .

وأما إعطاء النبى ﷺ قميصه لابن سلول فقيل : إنه أعطى القميص لعم الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب يوم بدر فإن العباس لما أسر مع أسرى بدر وسلب ثوبه وقد رآه النبى ﷺ كذلك فأشفق عليه ـ فطلب له قميصاً ـ فما وجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله بن سلول لتقاربهما فى طول القامة فأراد النبى ﷺ بإعطائه القميص أن يرفع اليدعنه فى الدنيا حتى لا يلقاه فى الآخرة وله عليه يد يكافئه بها وقيل : إنما أعطاه القميص إكراماً لابنه وإسعافاً له فى طلبه وتطييباً لخاطره واخرجه البخارى عن جابر .

وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال « إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً وإنى لأرجو ان يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه » .

وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله ﷺ ألف رجل من الخزرج .

حديث الإفك

قال تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو : . . . . . .

. . . خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ماأفضتم فيه عذاب عظيم . أذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم : ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم . ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ اذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج سهمى فخرجت ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت الى الرحل فلمست صدرى فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه . قالت : وكانت النساء اذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى عند ما سار الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه فظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ . فبينما أنا جالسه فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل قد عرس وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل أن يضرب على الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى . فوالله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول . فقدمت المدينة ، فاشتكيت ـ حين قدمنا ـ شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشىء من ذلك حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت ، تسبين رجلاً شهد بدراً ؟ قالت : أى هنتاه ، ألم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فاخبرتنى بقول أهل الافك ، فازددت مرضاً إلى مرضى . فلما دخل على رسول الله ﷺ قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى . فجئت أبوىّ ، فقلت لأمى : ياأماه ، ما يتحدث الناس ؟ قالت : أى بنية ، هونى عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها . قلت : سبحان الله ! أو قد تحدث الناس بهذا ! فبكيت تلك الليلة حتى أصبح لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم من

براءة أهله ، فقال : يارسول الله ، هم أهلك ولا نعلم الا خيراً ، وأما على فقال : لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وان تسأل الجارية تصدقك . فدعا بريرة فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فاستعذر من عبد الله بن أبى ، فقال : يامعشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى الا خيراً . قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ثم بكيت تلك الليلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى . فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكى معى ، ثم دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، قد ولبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شىء ، فتشهد ثم قال : أما بعد ياعائشة فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى مقالته قلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدرى ما أقول . فقلت ، وأنا جارية حديثه السن : والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم انى بريئة ـ والله يعلم أنى بريئة ـ لا تصدقونى (وفى رواية : ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أنى منه بريئة ـ لتصدقونى) وانى والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » . ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، فلما سرى عنه كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى ياعائشة ! أما الله فقد برأك . فقالت لى أمى : قومى اليه ، فقلت : والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله ، هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل الله « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم » (عشر آيات) ، فقال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره : والله لأنفق عليه شيئا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة » الى « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » . قال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح ما كان ينفق عليه .

وفى الباب عن ابن عباس وابن عمر عند الطبرانى ، وأبى هريرة عند البزار ، وأبى اليسر عند ابن مردويه .

بيعة النساء

فى الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة جاءت مبايعة النساء لرسول الله ﷺ « ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن الخ . . . » .

وقد قال الإمام القرطبى[1] فى تفسير هذه الآية :

لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه فأُمِر أن يأخذ عليهن ألا يشركن .

وفى صحيح مسلم عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمْتحنَّ بقول الله تعالى « ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين » إلى آخر الآية . قالت عائشة : فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله ﷺ : « انطلقن فقد بايعتكن » ولا والله مامست يد رسول الله ﷺ كف امرأة قط .

وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : « قد بايعتكن كلاماً » .

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى ج ١٨ ص ٧١ .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب وكان يشترط عليهن .

وقيل : لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا ومعه عمر أسفل منه فجعل يشترط على النساء البيعة وعمر يصافحهن .

وروى أنه ﷺ كلف امرأة وقفت على الصفا فبايعتهن . عن ابن العربى وهو ضعيف - وينبغى التعويل على ماق الصحيح .

وقالت أم عطية : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام . فقال : أنا رسول الله ﷺ إليكن ألا تشركن بالله شيئاً فقلن : نعم . فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم فاشهد .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه .

وروى أن النبى ﷺ لما قال : « على ألا يشركن بالله شيئاً » قالت هند بنت عتبه وهى منتقبة خوفاً من النبى ﷺ أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم أحد : والله إنك لتأخذ علينا أمرا مارأيتك تأخذه على الرجال ، وكان بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط .

فقال النبى ﷺ « ولا يسرقن» فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصيب من ماله قوتنا . فقال أبو سفيان : هو لك حلال . فضحك النبى ﷺ وعرفها وقال : أنت هند ؟ فقالت : عفا الله عما سلف .

وفى هذه الجملة من المبايعة اختلف فيها الفقهاء : هل ذلك من باب الفتوى أم هو من باب القضاء فيأخذ حكم ماجعل منه ؟

وتشير هذه الجملة أيضاً إلى مكارم أخلاق النبى ﷺ ، وقد كان من هند يوم أحد التمثيل بجثة سيد الشهداء عم رسول الله ﷺ وقد حزن عليه حزناً أليمًا . وقد توعد على من مثَّل به . ثم نهاه الله عن ذلك فصفح . وهنا لم يرد هند ، ولم يطرد تائبة ، ولم ينتقم منها بأى مكروه .

وهذه أخلاقه وأفضاله فى أمته عليه السلام والثناء ولله الحمد . وهكذا كان كرمه وحلمه ووصله وفضله مع أبى سفيان زوج هند وزعيم الكفر والحرب التى قاد قريشاً فيها على الاسلام ونبى الاسلام . كان إسلام أى إنسان طهارة له من كل إساءة ، وتوبة نصوحاً تمسح كل شر وتمحو كل فساد وظلم . فما كان يهمه سوى أن يدخل

العبد فى دين الله لتجرى عليه أحكام الاسلام . وتكون له أخوة الدين وتكريم الايمان صلوات الله وتسليماته عليه . وعفا الله عما سلف .

ثم قال : « ولا يزنين » وهى من خصائص البيعة - وقالت هند متعجبة : « أو تزنى الحرة » . وذلك لأن الزنا كان من عادة الإماء ، فكن يعلقن الرايات ، وكان مابقى من صنيع النساء يعتبر من أنواع الزواج - وهو فى أصله سفاح سوى صورة واحدة وهى خطبة الرجل امرأة من أهلها وكان يتولاه وليها أو أبوها

ثم قال تعالى « ولا يقتلن أولادهن » وقد فسر القرطبى هذه بألا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة - يعنى تطرح المرأة حملها . فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً يوم بدر فأنتم وهم أبصر .

وروى مقاتل أن هنداً قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . وكان لهند وأبى سفيان ولد هو بكرها وقد قتل يوم بدر واسمه حنظلة .

ثم « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف » . قيل فى تفسير « بين أيديهن » . يعنى ألسنتهن بالنميمة - ومعنى « أرجلهن » يعنى فروجهن .

وقيل : ما كان بين أيديهن من قبلة أو جسة ، وبين أرجلهن : الجماع .

وقيل : إن المعنى لا يدخلن على رجالهن ولداً من غيرهم . قال هذا الجمهور - وكانت المرأة تلتقط ولداً فتلحقه بزوجها وتقول : هذا ولدى منك فكان هذا من البهتان والافتراء .

وقيل : إن مابين يديها ورجليها كناية عن الولد لأن بطنها الذى تحمل فيه الولد بين يديها - وفرجها الذى تلد منه بين رجليها . وهذا عام فى الاتيان بولد وإلحاقه بالزوج . وإن سبق النهى عن الزنا .

وروى أن هند لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ما تأمر أنت إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق .

أما « ولا يعصينك فى معروف » فقد قال قتادة ، ولا ينحن ، يعنى لا يأتين بالنياحة ، ولا تخلو امرأة منهن إلا بذى محرم .

وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم : هو أى « لا يعصينك فى معروف » ألا يخمشن وجها ولا يشققن جيباً ولا يدعون ويلا ولا ينشرن شعراً ولا يحدثن الرجال إلا ذا محرم .

وروت أم عطية عن النبى ﷺ أن ذلك أى عدم العصيان فى معروف : فى النوح . وهو قول ابن عباس .

وروى شهر بن حوشب عن أم سلمة عن النبى ﷺ « ولا يعصينك فى معروف » فقال : هو فى النوح .

وروى مصعب بن نوح : أدركت عجوزاً ممن بايع النبى ﷺ فحدثتنى عنه عليه الصلاة والسلام فى قول الله تعالى « ولا يعصينك فى معروف » فقال : النوح .

وفى صحيح مسلم عن أم عطية لما نزلت هذه الآية وهى « يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً » إلى قوله تعالى « ولا يعصينك فى معروف » قال : كان منه النياحة .

قالت : فقلت يارسول الله : إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدونى فى الجاهلية فلابد لى من اسعادهم . فقال رسول الله ﷺ « إلا آل فلان » .

وعنها قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ألا ننوح فما وفت منا امرأة إلا خمس : أم سليم ، وأم العلاء ، وأبنة أبى سبرة امرأة معاذ ، أو ابنة ابى سبرة وامرأة معاذ .

ولكن ميمون بن مهران فسر المعروف هنا بأنه الطاعة لله ولرسوله فمعناه : ألا يعصينك فى طاعة الله ورسوله .

وقد فسر المعروف[1] تفسيراً عاماً وهو ألا يعصينه فى كل أمر فيه رشدهن . وهو قول بكر بن عبد الله المزنى .

وأعم من ذلك تفسير الكلبى بأنه كل معروف أمر الله به ورسوله .

وروى أن هنداً قالت : ما جلسنا فى مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

أركان الأمر فى الدين

وقد أعقب هذه الخصال المذكورة فى البيعة وهى خصال شتى ، صرح فيهن بأركان النهى فى الدين ولم يذكر أركان الأمر وهى ستة كما أنه صرح بستة أيضاً فى النهى :

الشهادة أى بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ـ والصلاة ـ والزكاة ـ والصيام ـ والحج ـ والاغتسال من الجنابة .

---

١ ـ المصدر السابق نفسه ص ٧٢ .

والحكمة فى التنبيه على أركان النهى التى صرح بها هنا فى الآية : أن النهى دائم فى كل الأزمان والأحوال . فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد .

وقيل فى حكمة التنبيه على مانهى عنه : أن هذه المناهى كان من يرتكبها من النساء كثير ولا يحجزهن عنها شرف النسب فَخُصّت بالذكر لهذا .

ثم إن هذا مثل قول النبى ﷺ لوفد عبد القيس « وأنهاكم عن الدُّبَّاء - والحنتم - والنقير - والمزفت » . وهذه الأشياء كانت كؤوس لشرب الخمر - وخصها بالنهى ونبه على ترك المعصية فى شرب الخمر دون سائر المعاصى لأنها كانت شهوتهم وعادتهم . وإذا ترك الإنسان شهوته من المعاصى هان عليه ترك مالا شهوة فيه .

وفسرت هذه الأدوات : فالدُباء هو القرع اليابس - والحنتم هو الجرة - والنقير هو أصل النخلة : يؤكل الجمار وينقر فيتخذ منه وعاء لشرب الخمر - والمزفت : الإناء المطلى بالزفت .

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : أما الدباء فإن أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون . من يرتكبها ولايحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لذلك - ويوضح ذلك توجيه الرسول (ص) النهى لوفد عن القيس عن الدباء - والحنتم - والمزفت - والنقير ، فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمر دون سائر المعاصى لأن الخمر كانت شهوتهم وعادتهم ، وترك الإنسان لذلك أسهل من تركه غيره مما لا شهوة له فيه . والحكمه أن الشرب فى هذه الأوانى يسرع بالإسكار ، وربما يشرب فيها من لايفهم ذلك .

هند تسأل الرسول عن الكفاية

وحين النطق بألا يسرقن قالت هند : يارسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل عليّ حرج أن آخذ مايكفيني وولدى ؟ قال النبى (ص) لهند : لا - إلا بالمعروف .

« وقد استفسرت هند عن ذلك لأنها خشيت أن تقتصر على مايعطى أبو سفيان وهو لا يكفيها فتضيع لحد الكفاية أو تأخذ أكثر مما يعطيها أبو سفيان فتكون سارقة ناكثة للبيعة فأذن لها النبى ﷺ وأرشدها إلى المعروف فلا تبالغ وقال : لا حرج عليك فيما تأخذين بالمعروف من غير استطالة إلى ماهو أكثر من الحاجة .

وقد قيد ابن العربى هذا الأخذ بأنه يكون من المال الزائد الذى لم يخزنه الزوج فى حجاب ولا يضبط عليه المالك بقفل ، فإن هتكته ومزقت حرزه وفتحت عليه ماأغلق هو عليه ، هذا لا يحل ولا يباح إلا بإذنه ومفاتحته فى طلب الكفاية والجهر بذلك أو برفع الأمر إلى القضاء والشكوى بالتضرر حيث لا إعسار عنده ولا فقر ، والمسئول عنه والمطلوب الإذن فيه من أجل ألا تأخذ من ورائه .

والحاصل أن معنى : « يفترينه بين أيديهن » : أى ما أخذته لقيطا ، « وأرجلهن » : ماولدته من الزنى .

وقال إن « ولا يعصينك فى معروف » : فى البخارى عن ابن عباس فى قوله « ولا يعصينك فى معروف » قال : إنما هو شرط شرطه الله على النساء . والصحيح أنه عام فى كل مايأمر به النبى ﷺ وينهى عنه ، فيدخل فيه النوح وتخريق الثياب وجز الشعر والخلوة بغير محرم وهى كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية . وقال أبو هريرة أن

الرسول قال : هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفين : صفا عن اليمين وصفا عن اليسار كما تنبح الكلاب فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يأمر بهن إلى النار . وعن أبى هريرة أن الرسول (ص) قال : « لا تصلى الملائكة على نائحة ولا مرنة » .

وقد سمع عمر نائحة فأتاها فضربها بالدرة حتى وقع خمارها عن رأسها فقيل : ياأمير المؤمنين : المرأة ـ المرأة قد وقع خمارها فقال : إنها لا حرمة لها .

وتخصيص عدم العصيان بالمعروف وتخصيصه بذلك كشرط وفى بيعة النبى ﷺ حتى يكون تنبيها على أن غيره أولى بذلك وألزم وأنفى للإشكال .

وروى البخارى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : كنا عند النبى (ص) فقال : أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وقرأ آية سورة النساء ثم قرأ فى الأية « فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها » .

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب فنزل النبى (ص) فكأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده . ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : « ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » حتى فرغ من الأية كلها فقال : أنتن على ذلك ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يارسول الله .

فتصدقن وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم فى ثوب بلال . أ هـ لفظ البخارى . وهذا من باب الندب فلا إلزام عليهن وليس للإمام أن يشترط عليهن ذلك .

وقال بعضهم : إذا احتاج الأمر كان على إمام المسلمين قضاء الضرورة .

عمر وخولة بنت ثعلبة
التى نزلت فيها آية المجادلة

التى اشتكت إلى الله هى خولة بنت ثعلبة وقيل بنت حكيم وقيل اسمها جميله . وزوجها أوس ابن الصامت أخو عبادة .

وقد مر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته ، والناس معه ، على حماره، فاستوقفته طويلاً ووعظته ، وقالت : ياعمر قد كنت تدعى عميراً ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك امير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر فإنه من ايقن بالموت خاف الفوت ، ومن ايقن الحساب خاف العذاب . كل ذلك وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : ياأمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لا زلت الا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات . أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟

قالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذي وسع سمعه كل شىء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى إلى رسول الله وهى تقول : يارسول الله ، أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني اشكوا اليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية . (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله . .) .

وقال الماوردى هى خولة بنت ثعلبة وقيل بنت خويلد ، كانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت .

وقال الثعلبى : قال ابن عباس : هى خولة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بنت الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ، فرآها زوجها ساجدة ، فنظر عجيزتها فاعجبه أمرها ، فلما انصرفت ارادها فأبت ، فغضب عليها فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكان الايلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبى ﷺ فقال لها حرمت عليه .

فقالت والله ماذكر طلاقاً ، ثم قالت اشكو الى الله فاقتى ، ووحدتى ووحشتى ، وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطنى ، فقال . حرمت عليه فمازالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية .

وذكر ابن العربي في أحكامه : روي أن خولة بنت وليج ظاهر منها زوجها فأتت النبى ﷺ فسألته عن ذلك ، فقال النبى ﷺ قد حرمت عليه فقالت اشكو الى الله حاجتي الية ، وعائشة تغسل شق رأسه الايمن ثم تحولت الى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي فذهبت لتخرج فقالت عائشة : امكثى فقد نزل الوحي ، فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها أعتق رقبة قال : لا أجد قال : صم شهرين متتابعين قال : إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات أخاف أن يعشو بصرى ، قال : فاطعم ستين مسكيناً قال : فأعنى فأعانه بشيء .

وروى الدار قطنى أن رسول الله ﷺ أعانه بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له .

الإيـــلاء

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » .

الإيـلاء : الحلف بألا يطأ زوجتـه ، قال إبن عبـاس قوله تعالى « يؤلون يعنى يحلفون » ـ وقال للذين يقسمون ـ آلى إيلاءً اى حلف .

وقـال ابن عبـاس : كان الايلاء فى الجـاهلية السنة والسنتين واكثر من ذلك ـ يقصدون بذلك ايذاء المرأة المساءة .

الاسلام : ولكن الله وقت لهم أربعة أشهر فاقصى مدة تستطيعها الزوجة فى غياب زوجها أو عدم قربانها مع حضوره هى أربعة أشهر وقد شاور عمر ابنته حفصه كم تصبر المرأة على غياب زوجها وقد رآها تخفض رأسها حياءاً فقال ان الله لا يستحى من الحق ـ فقالت تضيق بأربعة .

ومن آلى أقل من الاربعة فليس ايلاء .

وقد آلى النبى من نسائه ـ وطلق أيضاً فالامران أتى بهما الرسول .

لماذا آلى النبى ؟

سأله نساؤه الوسعة فى النفقة وليس عنده ـ وقيل لأن الرسول لم يكن عنده ماطلبن كما فى الصحيح ، وقيل سببه أن زينب ردت عليه هديته فغضب ﷺ فآلى منهن .

حكم الايلاء : يلزم كل شخص يلزمه الطلاق (الحر والعبد والسكران والسفيه والمولى عليه) إذا كان بالغاً غير مجنون والخصى إذا لم يكن مجبوباً والعجوز إذا كان قد بقى لديه بقية رمق ونشاط .

وخالف الشافعى فى المجبوب إذا آلى فقيل لاايلاء له وقيل يصح ايلاؤه والصحيح ألا ايلاء له كما يفهم ذلك من الكتاب والسنة ، فان الفىء يضيع اليمين ـ والفىء بمجرد القول لا يسقط فإذا بقيت اليمين المانعة من الحنث بقى حكم الايلاء والاخرس يلزمه فيصح ايلاؤه بَكتابة واشارة مفهومه والاعجمى يصح ايلاؤه .

والايلاء حلف ويمين الانسان لا يكون إلا بالله وحده لقوله ﷺ « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » .

ولكن ابن عباس يقول : كل يمين منعت الجماع فهى ايلاء .

وابن عبد البر يقول : كل يمين لا يقدر صاحبها على جماع امرأته من أجلها الا بان يحنث فهو بها مُوّلَ اذا كانت يمينه على أزيد من الاربعة ـ ومثال ذلك : الحلف بالله أو بصفة من صفَاته أو اقسم بالله أو اشهد بذلك أو على عهد الله وكفالته وميثاقه وذمته فانه ايلاء لازم .

التعليق : ويجوز بالتعليق كقوله إن وطئتك فعلى صوم كذا من الشهر أو السنة ومثله ان وطئتك فعلى حج إلى بيت الله او اعتاق أو صلاة أو صدقة كل ذلك ايلاء لقوله سبحانه « للذين يؤلون » فى عمومه فلم يعلق ولم يفرق فيشمل كل الصور التى يحلف فيها بألا يطأها واذا استثنى كأن يقول : لا أقربها ان شاء الله فهو ايلاء فإذا أتاها فلا تلزمه كفارة .

ولا يلزم الايلاء بذكر غير الله مثل الحلف بالنبى أو الملائكة او القرآن او الكعبة او يكون يهودياً أونصرانياً أو زان فليس ذلك بالايلاء لأنه اورده على غير وجه الحلف .

الايلاء المذكور فى القرآن :

فعند ابن عباس : ان الزوج لا يكون مولياً حتى يحلف بألا يطأها والاصح انه اذا حلف الا يطأ زوجته اكثر من أربعة أشهر فذلك هو الايلاء .

أما الحلف بألا يقربها أربعة أشهر أو أقل منها ـ وكانت يميناً محضاً بحيث لو وطئها فى هذه المدة (الأربعة أو أقل منها) لم يكن عليه شىء مثل كل الأيمان .

وقال فريق : ان الله تعالى وقَّت أى جعل للحالف أربعة أشهر وكذلك جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا فى العدة ، ثلاثة قروء ـ فلا تربص شرعاً بعد ذلك المذكور فى القرآن فيجب بعد المدة سقوط الايلاء وهو لا يسقط إلا بالفىء (الجماع) فى داخل المدة ويلزمه الطلاق بعد الاشهر .

وقال مالك والشافعى ان الله جعل لمن حلف أربعة اشهر فتكون للزوج بتمامها شرعاً وهى كامله ليس من حق الزوجة الاعتراض عليه فيها وذلك مثل الدين المؤجل لا يستحقه صاحبه الا بعد المدة كاملة ثم يطالب بدينه بعد تمام الأجل ، والايلاء مثله .

ولكن الفريق الآخر قال : تقاس المدة الاقل من الاربعة أشهر على الاربعة فاكثر بالنظر الى التأمل فى المقصود من الايلاء فانه يقصد الاضرار بالزوجة بحرمانها من المتعة الشرعية ومادام القصد من الحلف الايذاء ـ وقصد الشارع ازالة هذا الظلم بتمكينها من حقها فلذلك يجعل الحلف أربعة أشهر أصلاً ويلحق به الحلف على عدم اعطائها حقها اقل من الاربعة أشهر ـ فان الضرر واقع بأى مدة وقصد الشارع ازالة الضرر فى الاقل أو فى الاكثر ، ولا يسقط اليمين ويمنع الضرر إلا بأن يأمر الحاكم الزوج بان يرجع فى يمينه فيراجع الزوجة بالوطء ثم يكفر عن يمينه فان لم يفعل وقع الطلاق ولا يتركه الحاكم الى أن يرجع من نفسه أو يطلقها لتجد السعادة مع غيره وان لم يفعل طلقت الزوجه .

الفيء : معنى الفيء :

أن يجامع الزوجة المحلوف عليها اذا تمكن من الجماع .

وروى سليمان بن يسار أن الحكم بايقاف الزوج الاشهر قال به تسعة من اصحاب رسـول الله ﷺ فالتسعة الصحابة يقولون بايقاف الزوج ليقع منه مراجعة زوجته بالوطء ثم يكفر يمينه أو يطلق زوجته .

وقال مالك ـ وهذا الامر عندنا وبه نأخذ وقاله الليث والشافعى واحمد واسحاق وابو ثور .

متى تبدأ المدة :

تبدأ المدة التى اعطاها الشارع للمولى من يوم حلف ألا يأتيها ولا يتأخر الابتداء إلى يوم مخاصمة الزوجة له ورفعها الدعوى عند القاضى .

والحلف على ألا يطاها المسمى بالايلاء أزال ضرره فغير الحكم إلى ماشرعه الله تعالى من تحديد الاربعة أشهر لازالة الظلم .

وقد تعددت اقوال اهل العلم فى تحققه فى اقل من الاشهر الأربعة بأن حلف ألا يفعل أربعة اشهر ، والمعتمد نعم يكون الايلاء فى مدة أقل من الأربعة بالقياس على مشروعيته فى الاربعة لأن قصده الاضرار ، ولا زيادة للمدة مع قصد الايذاء اذ هو يحصل بقليل المدة وكثيرها .

ثم حدد الشارع ما يحلف به فخص بذلك أى اسم لله أوصفة من صفاته وقدر العلماء الطلاق الذى يلزم لرفع الضرر هل يعتبر بأن ترفع الزوجة مظلمة إلى القاضى ليأمره القـاضى أولا بأن يرجع فان لم يتمثل بالرجوع الى الزوجه فى فراشها طلق القاضى عليه ، أو يوقع الطلاق .

وقيل يحصل ذلك من دون القاضى وعليه ان يرجع فيشبعها ونفسه أو يفارقها .

والفيء : هو ان يرجع إلى وطء الزوجة ويكفر عن يمينه بأحد الخصال الاربع فأن لم يحصل منه ذلك طلق القاضى عليه أو يقع الطلاق بدون خصومه ولا قضاء اما ابتداء المدة فهو من يوم حلف .

ونؤكد بالنهاية حكم الايلاء رجوع الزوج فيما حلف عليه بأن يجامعها ويفعل الكفارة فإن لم يرجع بذلك طلقت طلقة رجعية بأمر القاضى . وهذا ايضاً نظر من الشارع للمرأة لإزالة الحرمان عنها وقصده الاضرار بها موجود فى نفسه منذ حلف اما يوم القضاء والتخاصم بالرفع إلى القاضى .

والحاصل فى كلمتين ان من حلف الا يتصل بالزوجة اتصال المتعة الى الزوجة ويحرمها مما احل الله لها فذلك قصد للاضرار وكم كانت المظالم تتوالى على النساء - فمرة لا حق لها فى الميراث . ومرة لاحق لها فى التملك حتى ولا فى مهرها ومرة لا حق لها فى الرضا بالزوج الذى جاء يخطبها او بالزوجية والاستعداد لها ، وأخرى كان الفصل هو للسنة فى المعاملة من الرجل للمرأة ومرة لا ترث أبداً ومرة يلقى ابن الزوج المتوفى ثوبه على أمرأة ابيه ليحجزها عن الازواج فاما يعاشرها هو بزواج ، ومرة يقول لها « انت على كظهر أمى » ومانحن فيه إضرار فى صميم رسالتها فى الحياه ان الله تعالى اودع النفس الانسانية غرائز توقف عليها عمار الحياة مثل غريزة حب التملك وغريزة الأمومة وحب الاستمتاع بينها وبين زوجها ، فالتملك يتوقف عليه كسب المال والتصرف فيه ، وغريزة التزاوج حبها يدفع كلا من الرجال والنساء الى اشباع الرغبة بالمتعة ويتوقف على تلك الغريزة الانجاب والولد فشرع للاولى مشروعية البيع والتجارة وكسب الاموال والثانية لايجاد الاجيال والتوالد وقد دفع الله اليها بالتشريع ويغرز الشهوة فى الظهور والارحام فمنع هذه الرغبة قوتها الدافعه وحبها الدافقه وتبادلها بين الرجل والمرأة أغنى عن التشديد فى تحصيلها حيث استبدل بالامر نفس الرغبة ففتح لها ابواب الزواج واحكام الطلاق والعدة والمهر والانفاق وشرع سبحانه الاحكام التى يحفظ بها الدين والنفس .

المؤلفـــة والتأليـــف

صنف المؤلفة قلوبهم - الذى يمثل المصرف الرابع من مصارف الزكاة . وقد أمر الله بإعطاء هؤلاء مع الأمر بفرضية الزكاة . وقد أخذ تشريع الزكاة هذا النظام إذ هى تمثل الركن المالى الذى تتحقق به المساواة والتكافل بين المسلمين غنيهم وفقيرهم وقد أخذ هذا التشريع للزكاة اهتماماً عظيماً . فقد اقترنت الزكاة بالصلاة . فجاءت أوامر الله بها مع الصلاة ، ثم بين الله الأنواع التى تصرف لها الزكاة بقوله تعالى فى سورة التوبة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » وقد جاء الأمر بالصرف إليهم باللام « للفقراء والمساكين والمؤلفة ». ثم عبر عن الأصناف التى بعد هؤلاء بفى « وفى الرقاب الخ ».

ثم كتب النبى ﷺ بتفصيل آخر تناول بيان الأموال الزكوية والنصاب التى يحقق الغنى واليسار من كل نوع من الأموال والمقدار الذى يجب إخراجه .

وقد شرع إعطاء المؤلفة قلوبهم ، فنفذ الإعطاء لهم فى أول تشريع الزكاة واستمر فى حياة الرسول وخلافة أبى بكر حتى جاء رجلان منهم وطلبا أرضا من الصديق ، فأمر لهما بها وكتب لهما به كتاباً ، فلما ذهبا إلى عمر ليشهد عليه ، ألقاه فى وجههما وقال لهما : إن الله أعـز الاسـلام وأغنى عنكم اجهـدا جهـدكما فليس لكم عنـدنـا إلا السيف . وأرادا الايقاع بين الشيخين . فعادا إلى أبى بكر فردهما إلى ماقال عمر .

ومن عبارة عمر رضى الله عنه تظهر الحكمة فى الأمر بإعطاء هؤلاء ، وهى أن الاسلام فى أول أمره كان فى حاجة إلى تأليف قلوب الأصناف . وكان المسلمون قلة .

ثم قوى والحمد لله وكثر أتباعه . وفى هذه الحالة لا تظهر لإعطائهم بعد قوة أتباعه وكثرتهم فائدة . ويكون منع الإعطاء لهم توفيراً للمال للمسلين .

وقالوا : إن المؤلفة قلوبهم أربعة أصناف :

١ ـ **الصنف الأول** : ضعيف الايمان ممن أسلم حديثاً . فنعطيه من الزكاة ليقوى .

٢ ـ **الصنف الثانى** : من أسلم وله شرف فى قومه ويتوقع بإعطائه من الزكاة إسلام غيره من الكفار .

٣ ـ **الصنف الثالث** : مسلم قوى الايمان يتوقع باعطائه من الزكاة أن يكف عنا شر من وراءه من الكفار .

٤ ـ **الصنف الرابع** : من يكفينا شر مانع الزكاة .

فهم قوم كانوا فى صدر الاسلام ممن يظهرون الاسلام ويتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم[1] .

قال الزهرى : المؤلفة من أسلم من يهودى أو نصرانى وإن كان غنياً .

وقال بعض أهل العلم : إن المؤلفة صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الاسلام ـ وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف ، ولكنهم يسلمون بالعطاء والإحسان .

وقال آخرون : المؤلفة قوم أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم فيعطون ليتمكن الاسلام فى صدورهم . أو هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألف أتباعهم على الاسلام .

وهذه كلها أقوال متقاربة والقصد منها : الإعطاء من الزكاة لمن لم يتمكن إسلامه حقيقة .

والمشركون أصناف ثلاثة : صنف يرجع بالبرهان ـ وصنف بالقهر ـ وصنف بالإحسان .

وإمام المسلمين الذى ينظر لهم يستعمل مع كل صنف مايراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر .

وفى صحيح مسلم من حديث أنس : قال ﷺ للأنصار : فإنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألفهم ليسلموا . . .

وقال ابن إسحاق : أعطاهم يتألفهم ويتألف بهم قومهم ـ وكانوا أشرافاً فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير وأعطى إبنه معاوية مائة ، وأعطى حكيم بن حزام

مائة ، وأعطى الحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو مائة ، وحويطب ابن عبد العزى وصفوان بن أمية ومالك بن عوف ، والعلاء بن جارية مائة . فهؤلاء أصحاب المئين .

وأعطى رجالاً من قريش دون المائة منهم : مخرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير ابن وهب الجمحى ، وهشام بن عمرو العامرى .

قال محمد بن اسحاق : لا أعرف ماأعطاهم . يعنى عدد الإبل التى أعطاها لكل واحد من هؤلاء بعد أصحاب المئين . ثم قال : أعطى سعيد بن يربوع خمسين بعيراً ، وعباس بن مرداس السلمى أباعر قليلة فسخطها وقال فى ذلك شعراً منه :

كانت نهاباً تلافيتها بكرى على المهر فى الأجرع
وإيقاظى القوم أن يرقدوا إذا هج الناس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيد دثبين عيينة والأقرع

إلى أن قال : وماكان حصن ولا حابس يفوقان مرداش فى المجمع
وماكنت دون أمرى منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال الرسول ﷺ : اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه فأعطوه حتى رضى فكان ذلك قطع لسانه .

وقد استعمل رسول الله ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه . وقد حسن إسلامه وإسلام المؤلفة من قومه عدا عيينة بن حصن .

وكان من الأفاضل المتفق على فضله : حكيم بن حزام ـ الحارث بن هشام ـ سهيل بن عمرو ـ عكرمة . ومنهم دون ذلك .

وقد فضل الله بعضهم ـ وهو سبحانه أعلم بعباده .

قال مالك : بلغنى أن حكيم بن حزام أخرج ماكان أعطاه النبى ﷺ فى المؤلفة فتصدق به بعد ذلك .

ومن ذلك نلمس مقدار ماكان للإسلام من تأثير على القلوب . فقد استعزت القبائل بالأموال أول الأمر حتى ثاروا على فرضية الزكاة ـ وجحدوها بعد أن لحق الرسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى . واستهانوا بدينهم . وفضلوا بعض الأموال التى يجب عليهم أداؤها على ماعند الله للمؤمنين من ثواب جزيل ، ومن رضا الله ورسوله عنهم وسعادتهم فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت لهم .

ثم كان إيمانهم وإخلاص قلوبهم بعد ذلك يفوق كل ماقى الدنيا من متاع زائل .

ويبين ذلك مافعل حكيم بن حزام من إحصاء العطاء والتصدق به . وهو الذى ولد فى جوف الكعبة ومات فى المدينة ٥٤ هـ . وعاش ١٢٠ سنة ، ٦٠ منهم فى الاسلام .

هذا أمر المؤلفة قلوبهم فى أول الأمر من الدعوة .

أما حكم السهم الذى لهم فى الآية . هل انتهى أمرهم ، فتكون مصارف الزكاة من الفقراء ومن بعدهم إلى آخر الآية سوى المؤلفة ، أم إن سهمهم باق إذا وجد ظرف التأليف بأن احتاج المسلمون إلى هؤلاء لأى مصلحة يحتاجها المسلمون ، كان لهم أن يتألفوا فيعطوا ، وإذا استغنوا فلا شىء .

جرى الخلاف بين العلماء فى ذلك :

فقد قيل : إن عمر رضى الله عنه والحسن والشعبى قالوا : إن المؤلفة قلوبهم انقطعوا بعزة الاسلام وظهوره . وهذا المشهور عن الامام مالك رضى الله عنه .

وقال بعض الحنفية : إن سهم التأليف انقطع بعد أن أعز الله الاسلام والمسلمين وقطع دابر الكافرين لعنهم الله .

وقد اتفق الصحابة رضوان الله عليهم فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم . وقد اظهر ذلك واقعة عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس . وتصرف عمر معهما .

والواقع أن هذا الاتفاق على انقطاع سهمهم لا يفيد القطع بانتهائهم ، لأن الحالة التى رد فيها عمر هذين كانت حالة قوة وظهور وانتصار . وعلى هذا يحتمل أن يكون ردهم نظراً لما كان . وهذا لا ينفى عودة سهمهم إذا ضعف الاسلام واحتاج أهله إلى خدماتهم .

ولهذا فإن بعض العلماء يرى بقاء سهم التأليف ، لأن إمام المسلمين ربما احتاج إلى أن يتألف على الاسلام . لأن واقعة عمر كانت بسبب ماراه هو من عزة الدين ومنعة أهله .

ولذلك قال الزهرى : لا أعلم نسخاً . فيكون الحكم ثابتاً بحيث إذا كان هناك شخص احتاج المسلمون إلى تألفه ويخشى أن يلحق بالمسلمين منه آفة . أو كان بحيث يرجى للمسلمين مصلحة . أو يحسن إسلامه بعد أن يدفع إليه إمام الأمة .

وعلى هذا إذا احتاج المسلمون فى بعض الحالات والأوقات إلى ذلك يعطى من الصدقة . وقد اختاره ابن العربى فقال : « والذى عندى أنه إن قوى الاسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم». وروى حديث « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » .

مصير سهم المؤلفة إذا زال :

وإذا زال التأليف وانعدم رد سهمهم إليهم ، فإنه يرد إلى الأصناف الأخرى أو أنه يرد إلى الإمام ، وللامام أن يتصرف فيه حسب مصالح المسلمين .

١ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى ج ٨ ص ١٧٨ .

الـرجـــم

روى ابن عباس أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر : ان الله تعالى بعث محمـداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله تعالى عليه آية « الرجم » فقرأناها وعقلناها ووعيناها .

رجم رسـول الله ﷺ ما عزاً لما أقـر بالـزنا وتمسك بتأكيد إقراره ومن بعده رجم الغامدية بعد أن أقرت وثبتت على إقرارها .

ورجمنا بعده فنخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله مانجد آية الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله .

فالرجم فى كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف ـ أخرجه مسلم والبخارى .

فلقد خطب عمر بذلك وهو على المنبر وكان الصحابة حاضرين ولم ينقل عن أحد منهم إنكار فكان إجماعاً ويبعد عليهم أن يرضوا بذلك مع بطلانه .

وماروى عن عثمان فى أنه أتى بامرأة ولدت لستة أشهر من وقت زواجها فأمر برجمها .

قال سيدنا على كرم الله وجهه لسيدنا عمر رضى الله عنهما : ليس لك عليها سبيل لقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ثم قال : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » . أخرجه مالك فى الموطأ .

وقد تناقش علىّ وعثمان فى احتمال أن يكون الحمل من الزوج لأن أقل مدة للحمل ستة أشهر بدليل سياق الآيتين للاستدلال على قوله : ليس لك عليها سبيل .

ولو كان الأمر إنكارا للحد بالحمل لعلل بذلك عدم السبيل عليها لعدم وجود أمر آخر عليها من اعتراف أو شهود ، وقد سكت عثمان وهو دليل على أنهما معاً يريان وجوب الحد عليها بالحمل ، ثم وضح علىّ المانع من الحد بسياقه الآيتين فى مقام الحجاج معه .

وماروى عن علىّ أنه قال : ياأيها الناس إن الزنا زنا سر وزنا علانية .

فالسر أن يشهد الناس فيكونوا أول من يرمى به ـ والعلانية أن يظهر الحمل أو الاعتراف فيكون الامام أول من يرمى به ـ أخرجه البيهقى بالمعنى .

وهذا تصريح من الامام علىّ الذى سمى الحمل زنا علانية وأخبر أن الامام أول من يرمى به .

الحد يدرأ باحتمال الشبهات :

احتمال الشبهة لا يسقط الحد :

وإسقاط الحد يكون بالشبهة نفسها أما إسقاطه باحتمال الشبهة فلا يقبل لأنه يؤدى إلى عدم إقامة الحد لأن كل من يوجد بها حمل تستطيع ادعاء الشبهة وتتخذه وسيلة إلى إسقاطه .

والاجماع واقع على إقامة الحد بالشهود ـ والشهادة إخبار بظاهر وليست إثباتاً لواقع والقطع هنا أن الحمل وجد بسبب الزنا لأن الولد يولد من وطء حلال أو حرام .

وقد جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ وكانوا كعادتهم فى الخيانة مسلطين على الايقاع فقالوا لبعضهم : اسألوا محمداً عن حكم الزنا فإن أجابكم بالرجم فدعوه وإن أفتاكم بغير الرجم فاقبلوه ـ يريدون أن يلبسوا على الناس ، وقد سأل النبى ﷺ أحد اليهود الكبار وأقسم النبى ﷺ على هذا الكبير ليقول ماعندهم فى كتبهم فقال بالصدق أن حكمه عندهم الرجم .

وكان الصحابة يقومون بالتنفيذ بأمره .

وقد قضى ﷺ بالرجم على العسيف وهو الذى زنا بزوجة من كان يعمل عنده وكان أبوه قد سمع الحكم على ابنه بغير الرجم فصحح النبى ﷺ الحكم وأمره أن يسترد ماقضى به قبل الترافع إلى النبى ﷺ .

وقال عمر على المنبر : إن الآية التى نسخت تلاوتها بقى حكمها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة .

وقد جاءت مراحل تشريع العقوبة على الزنا فى سورة النساء « فأمسكوهن فى البيوت » ، « فآذوهما » .

وقد وضح العلماء ترتيب الحد فى موضعه فى باب حد الرجم .

الكلالة

قال تعالى « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

ذكروا عن البراء بن عازب أن هذه الآية هى آخر آية نزلت فى القرآن ، كذا فى مسلم .

ومن المواقع المشهورة انها انزلت ورسول الله ﷺ يتجهز لأداء حجة الوداع .

والآية نزلت بسبب جابر بن عبد الله ، فقال : أنى مرضت فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى وابو بكر معه وكانا ماشيين فاغمى على ، فتوضأ نبى الله ﷺ ثم صب على من وضوئه فافقت فقلت : يارسول الله كيف اقضى فى مالى ؟ فلم يرد على شيئاً حتى نزلت آية الميراث «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » رواه مسلم وقال: آخر آية نزلت « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » .

وفى أول هذه السورة بيان ماقيل فى الكلالة وأن المراد بالأخوة هنا الأخوة لأب وأم وكان لجابر شقيقات عددهن تسع .

إن امرؤ هلك ليس له ولد : ليس له ولد ولا والد واكتفى بذكر أحدهما أى نفى الولد عن ذكر الطرفين أى عن الوالد بذكر .

فلفظ الولد ينطبق على الابن والاب ، لأن معنى الولادة متحقق فى الولد والوالد فالابن ولد لأنه مولود ـ والوالد كذلك لأنه مولود له .

كلفظ الذرية فانها من ذرى ثم تطلق على المولود وعلى الوالد قال الله تعالى « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » .

وقد اتفق جهور الفقهاء على أن الأخوات عصبة للبنات وممن قال به مع الجمهور داود ولو لم يكن معهم أخ . غير ابن عباس فانه كان لايجعل الاخوات عصبة للبنات .

وقد استدل الجمهور بظاهر الآية « إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك » .

ابن عباس : ولم يورث الاخت إلا اذا لم يكن للميت ولد ثم ان الابنة من الولد فوجب ألا ترث الاخت مع وجودها .

وكان ابن الزبير يقول بقول ابن عباس فى هذه المسألة حتى اخبر الأسود بن يزيد أن معاذاً قضى فى بنت وأخت فجعل المال بينهما نصفين .

آية الصيف : وسميت الآية بآية الصيف لأنها فى زمن الصيف .

قال عمر : انى والله لا ادع شيئاً أهم الى من الكلالة وقد سألت رسول الله ﷺ فما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فيها حتى طعن بأصبعه فى جنبى أو فى صدرى ثم قال : ياعمر الا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء .

وعنه رضى الله عنه قال : ثلاث لأن يكون رسول الله ﷺ بينهن أحب إلى من الدنيا ومافيها : الكلالة ـ والربا ـ والخلافة ، أخرجه ابن ماجه فى سننه .

سقوط حد السرقة
أيام المجاعة

كتب العلامة ابن القيم فى ص ١٠ من الجزء الثالث من كتابه إعلام الموقعين .

قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اسقط القطع عن السارق فى عام المجاعة .

قال السعدى : حدثنا هرون بن إسحاق الخراز حدثنا على بن المبارك حدثنا يحيى بن أبى كثير حدثنى حسان بن زهران ابن جرير حدثه عن عمر قال : « لا تقطع الأيدى فى عذق ولا عام سنة »

قال السعدى : سألت احمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال : العذق : النخلة - وعام سنة - المجاعة فقلت لأحمد : تقول به فقال : اى لعمرى قلت إن سرق فى مجاعة لا تقطعه ؟

فقال : لا . إذا حملته الحاجة على ذلك والناس فى مجاعة وشدة قال السعدى : وهذا على نحو قضية عمر فى غلمان حاطب - حدثنا أبو النعمان عارم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن حاطب أن غلمة لحاطب ابن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل إلى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له : إن غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقروا على انفسهم .

فقال عمر : ياكثير بن الصلت : اذهب فاقطع ايديهم فلما ولى بهم ردهم عمر ثم

قال : أما والله : لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم وأيم الله إذ لم افعل لأغرمنك غرامة توجعك .

ثم قال : يامزنى بكم أريدت ناقتك منك ؟

قال المزنى : بأربعمائة .

قال عمر : اذهب فاعطه ثمانمائة .

وذهب احمد إلى موافقة عمر فى الفصلين جميعاً .

وقد عالج عمر المجاعة بما يأتى :

(١) قد لجأ إلى ربه فصلى صلاة الاستسقاء وطلب السقيا بالعباس ابن عبد المطلب عم النبى ﷺ . وقال : اللهم إنا نستشفع إليك بعم نبينا ـ وقد كنا نستسقى إليك بنبينا .

(٢) اسقط حد السرقة . فلم يقطع يد من سرق فى هذا العام .

وكان عمر قد عرضت عليه غلمان حاطب بن أبى بلتعة وقد سرقوا ناقة لرجل من مزينه . فأمر عمر بقطع أيديهم ثم طلب ردهم إليه وقال لولا أنى أعلم أنك تستخدهم وتجيعهم حتى لو أكل بعضهم ماحرم عليه حل له لقطعت أيديهم .

وأما وقد حصل ذلك فإنى أغرمك غرامة توجعك ثم التفت إلى الرجل المزنى صاحب الناقة المسروقة وقال له بكم أريدت ناقتك أيها المزنى ؟

فقال : لقد أبيت أن أبيعها بأربعمائة ـ فأمر ابن أبى بلتعة بأن يؤدى إلى المزنى صاحب الناقة المسروقة ثمانمائة وقد وزع عمر الأحكام حسب المصلحة ـ فغلمان حاطب كانوا محرومين من أكل اللحم : فاضطروا إلى أخذ الناقة وأكلوها بهذا الاعتبار .

ونظر لأن هؤلاء الغلمان قد أخذوا الناقة لإشباع أنفسهم مما حرمهم منه صاحبهم وهو حاطب صاحب الغلمان فقد أسقط عمر الحد عنهم .

ولم ينس فى ذلك صاحب الناقة . فعوضه عنها بدفع ضعف ثمنها . وتقديره ضعف الثمن ليعاقب بذلك حاطباً الذى تسبب فى إلجاء غلمانه إلى أكل الناقة المسروقة فهو سبب ملجىء إلى سرقتها . بأيدى غلمان حاطب . وقد أظهر بقوله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم عليه لكان له العذر .

فأعطى لصاحب الناقة مايعوضه عنها مع زيادة ضعف الثمن الذى أدب به حاطب بن أبى بلتعة .

وهكذا جاء حكم عمر موزعاً بين الأطراف الذين كونوا الحادثة وأعطى عمر بذلك لكل طرف مايستحقه . وكان حكماً اقتضته سياسته كحاكم عام لهذه الأمة التى ولاه الله تعالى أمرها

(٣) أسقط الزكاة فى هذه المدة . وهى مدة الجدب والمحل لأن الزكاة تفرض على القادر الذى يجد القوت ويملك النصاب من أى مال وجبت فيه الزكاة وهى : النقدان « الذهب والفضة » إذا ملك مقدار النصاب . وفى أثناء المجاعة لم يجد أى واحد ممن كان فى الجزيرة العربية مقدار النصاب .

والأنعام التى تجب فيها الزكاة وهى الإبل ـ والبقر ـ والغنم ومن كان عنده منها فإنه لم يجد ماتأكله . والشرط فى فرضية الزكاة أن تكون سائمة أى تكفى بالرعى مجاناً أكثر العام والجدب ليس فيه ماترعاه الأنعام .

وزكاة الزروع والثمار ـ لقوله تعالى « وآتوا حقه يوم حصاده » وعروض التجارة تقوم بالأثمان ـ ولم يكتف بصلاة المسلمين الذين كانوا معه بل كتب إلى عماله فى الشام ومصر والعراق ليصلوا صلاة الاستسقاء فطاعة الله تعالى تجلب الخير وتوسع الرزق . وتذهب المحنة ـ وكيفية الصلاة التى شرعت للاستسقاء جاءت على انحاء متعددة صلاها رسول الله ﷺ فى جملة صور

واستنجد بولاته فى البلاد المفتوحة يعرض عليهم أن يرسلوا المعونات ومن صور كتابته إلى الأمراء معاوية فى الشام وأبو عبيدة فى العراق ـ وعمرو بن العاص فى مصر .

فكتب إلى عمرو بن العاص « السلام عليك ورحمة الله وبعد أتحيا أنت ومن قبلك وأموت أنا ومن عندى فياغوثاه ـ ياغوثاه ـ ياغوثاه » .

وقد رد عمرو على أمير المؤمنين « سأمدك بعير أولها عندك وآخرها عندى » .

وكان الولاة قد اسرعوا فى طمأنة أمير المؤمنين بإرسال المعونات اللازمة من الطعام والدقيق . والودك والأقمشة .

قالوا : إن أمير المؤمنين كان مهتمًا وحزيناً . فكان يلجأ إلى الله تعالى بعد أن يصلى العشاء ويقول اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدى فالتزم أمير المؤمنين بمشاركة الرعية فى الطعام فلم يأكل مع أسرته مدة الجدب . فكان الناس يجدون فى مواساة أمير المؤمنين والتزامه مشاركتهم فى الطعام سلوى وعزاء .

وهذا من أسمى مايبذله الحاكم فى مواساة الرعية حيث رأوا فى التزام عمر بأن يكون مع الناس فى طعامهم صورة كريمة وجليلة فى قيادته للرعية . ومساواة شخصه بهم ـ أعلى أنواع الرعاية والوفاء لمن هم تحت إمرته .

وهـذا فوق التزامه بالورع والقناعة فى حياته عامة حتى خشى عليه أصحابه . فوسطوا بينهم وبينه ابنته السيدة حفصة أم المؤمنين بأن يلين عيشه . ويرفه فى طعامه وقد رأوا فيه سمرة بدت على وجهه بأكل الزيت ـ وقد علم عمر بمن كلموا حفصة لتكلم أباها .

ثم قال : إن حق أولادى فى نفسى . أما فى دينى فلا ـ وأقسم عليها بأن تخبره بما كانوا عليه فى كنف النبوة . وقال إن لى صاحبين مضياً فإن عملت بما كانوا عليه وإلا فإن خالفت خولف بى .

وقد قال عمر : « لقد أوشكت أن أضع فى كل بيت عدته فإن الناس لا تهلك على أنصاف بطونهم » وعمر فى ذلك يخترع نوعاً من التكافل فريداً ـ ويعلله ليفهمه الناس . فمن تعود أن يأكل رغيفاً لو أكل نصف رغيف فإنه لن يموت .

وأما إذا لم يجد مايأكله : فإنه لن يصبر على ذلك إلا أياماً ثم يموت .

وكان رضوان الله عليه يخشى ألا يجد الناس مايأكلون . ومن حلت به هذه الحالة فإن هلاكه وشيك .

ثم لم يقتصر أمير المؤمنين على نفسه فى التزامه أن يكون كبقية الناس بل ألزم أهله وأولاده بمثل ذلك وتوعدهم على خلاف ذلك إذا فعلوه .

كيفية صلاة الاستسقاء[1]

روى أنس رضى الله عنه أن الناس قد قحطوا فى زمن رسول الله ﷺ فدخل رجل من باب المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فقال يارسول الله هلكت المواشى وخشينا الهلاك على أنفسنا فادع الله أن يسقينا فرفع رسول الله ﷺ يده فقال « اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً غدقاً مغدقاً عاجلاً غير رائث » .

قال الرواى : ماكانت فى السماء قزعة فارتفعت السحاب من ههنا ومن ههنا حتى صارت ركاماً ثم مطرت سبعاً من الجمعة إلى الجمعة . ثم دخل ذلك الرجل والنبى ﷺ يخطب والسماء تسكب فقال يارسول الله تهدم البنيان وانقطعت السبل فادع الله أن يمسكه فتبسم رسول الله ﷺ لملالة بنى آدم .

قال الرواى : والله مانرى فى السماء خضراء

ثم رفع يديه فقال : « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر » وانجابت السحاب عن المدينة حتى صارت حولها كالأكاليل ولم يذكر غير الدعاء .

---

١ ـ فتح القدير جـ ١ صـ ٤٣٧ .

وقيل : يصلى الإمام ركعتين كصلاة العيد فى الجهر بالقراءة بلا آذان ولا إقامة ـ رواه ابن عباس رضى الله عنهما وقد استدل بالحديث على الجواز .

ونقلوا عن عمر أنه صعد المنبر فدعا فاستسقى . وفى السنن الأربع عن اسحاق بن عبد الله بن كنانة قال : ارسلنى الوليد بن عتبة وكان أمير المدينة إلى ابن عباس أسأله عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال : خرج رسول الله مبتذلاً متواضعاً متضرعاً حتى أتى المصلى فلم يخطب خطبتكم هذه ولكن لم يزل فى الدعاء والتضرع والتكبير وصلى ركعتين كما كان يصلى فى العيد . صححه الترمذى .

الاستسقاء فى المسجد

حدثنا شريك بن عبد الله بن أبى نمر أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا فقال : يارسول الله : هلكت المواشى ـ وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال اللهم اسقنا ـ اللهم اسقنا ـ اللهم اسقنا .

قال أنس : فلا والله مانرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئاً ومابيننا وبين سلع من بيت ولادار .

قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس . فلما توسطت السماء انتشرت ثم امطرت قال : والله مارأينا الشمس سبتا ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائماً فقال يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ـ اللهم على الآكام والجبال والآجام والظراب ـ والأودية ومنابت الشجر .

قال : فانقطعت وخرجنا نمشى فى الشمس فسألت أنساً : أهو الرجل الأول ؟ فقال : لا أدرى .

ورويت : الاستسقاء فى خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة ورويت : برواية من اكتفى بصلاة الجمعة والاستسقاء وكذلك برواية تحويل ردائه فى الاستسقاء يوم الجمعة وبرواية إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقى لهم ولم يردهم وبراوية استشفاع المشركين بالمسلمين عند القحط وبرواية بالجهر بالقراءة فى الاستسقاء وبالدعاء قائما ـ وكيف حول ظهره إلى الناس وبالصلاة ركعتين والاستسقاء فى هذه الأحوال كلها ونختار منها حديث انس وهو :

عن ثابت بن قيس عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال كان : النبى ﷺ يخطب

يوم الجمعة فقام الناس فصاحوا فقالوا : يارسول الله : قحط المطر واحمرت الشجر وهلكت البهائم ـ فادع الله أن يسقينا .

فقال : اللهم اسقنا مرتين ـ وأيم الله مانرى فى السماء قزعة من سحاب فنشأت سحابة وأمطرت ونزل عن المنبر فصلى .

فلما انصرف لم نزل نمطر إلى الجمعة التى تليها .

فلما قام النبى ﷺ يخطب صاحوا إليه : تهدمت البيوت ـ وانقطعت السبل ـ فادع الله يحبسها عنا فتبسم النبى ﷺ ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا فكشطت المدينة فجعلت تمطر حولها وماتمطر بالمدينة قطرة ـ فنظرت إلى المدينة ـ وإنها لفى مثل الإكليل [1]

عن عبد الله بن دينار عن أبيه قال سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبى طالب .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال أبو طالب : هذا حين تمالأت قريش على النبى ﷺ ونفروا عنه من يريد الإسلام .

ومعنى البيت أنه كان عماداً وملجأ ومطعمًا ومقيناً ومعيناً لليتامى والأرامل جمع أرملة وهى الفقيرة التى لا زوج لها .

وكان ﷺ حين رأى من الناس إدباراً يقول : اللهم سبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شىء حتى أكلوا الجلود ـ والميتة ـ والجيف . وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع .

فأتاه أبو سفيان فقال : يامحمد إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا ـ فادع الله لهم قال الله تعالى « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » .

وعن أنس أن عمر رضى الله تعالى عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون .

وأخرج الزبير فى الأنبياء أن العباس حين استسقى به قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ـ ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم إليك لمكانى من نبيك ـ وهذه أيدينا إليك بالذنوب ـ ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث ـ فأرخت الماء مثل الجبل حتى أخصبت الأرض وكان ذلك فى عام الرمادة سنة ١٨ ثمان عشرة من الهجرة .

---

١ ـ الإكليل : كل شىء دار من جوانبه . واستشهر لما يرفع على الرأس محيط به ـ وهو من لباس الملوك .

يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين[1]

قبل هذه الآية الكريمة ـ أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن يجنحوا إلى السلام إذا عرضه عليهم الأعداء فى قوله سبحانه « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

فالاسلام لم يأت بالعنف ولم ينتشر بالقوة كما يزعم المتقولون .

ثم للعلماء آراء فى هل هذه المسالمة نسخت بالآيات الآمرة بقتل المشركين « فاقتلوا المشركين . . »، « وقاتلوا المشركين كافة . . » .

والمأثور عن عكرمة وقتادة بأن هذه الآية « فاقتلوا ، قاتلوا . . » نسخت بسورة براءة فقالا : نسخت سورة « براءة » كل موادعة إلى أن يقول الناس : لا إله إلا الله . وقال ابن عباس : إن الناسخ للموادعة هو قوله تعالى « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » فى سورة محمد .

والرأى المختار أنه لم يحصل نسخ وأن المراد هنا هو الإذن الشرعى بقبول الجزية من الذين يختارونها ـ وهى أمر من ثلاثة فى عرض الاسلام . بجواز قبول الجزية وترك أهل الذمة على آدائها .

ولا شك أن الصحابة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن تولى أمر المسلمين بعده من الأئمة صالحوا العجم على ماأخذه المسلمون منهم وما أداه أهل الذمة للمسلمين فتركهم المسلمون على ماهم عليه ، مع أن المسلمين كانوا قادرين

---

١ ـ الأنفال آية ٦٤ .

على استئصال غير المسلمين نهائياً ، ولكنهم أبقوهم واحترموا عهودهم ، وصانوا حرماتهم أنفسهم وأموالهم وأماكن عبادتهم .

وكذلك أجرى سيدنا محمد ﷺ الصلح مع كثير من أهل البلاد التى فتحها المسلمون على ماتفق معهم على أدائه ، ممايحفظ البلاد ويصون الحرمات ويدافعوا به عن البلاد ، ويجروا أمور الاصلاح التى تعود على المسلمين وغيرهم بالخير والبر .

فلقد فتح الله على نبيه خيبر ـ ولم بنفهم من بلدهم ولم يستول على بلدهم ، بل أبقاهم فيها وأبقى أراضيهم فى أيديهم يزرعونها على نصف الخارج .

وقيل : إن بنى قريظة هم المعنيين تقبل جزيتهم ويقبل صلحهم وعملهم فى أرضهم فلا يؤخذ منهم شىء سوى نصف الخارج .

مايراه الإمام

وإذا كان المعهود شرعاً أن تولية إمام المسلمين الولاية التامة منوطة بمصلحتهم يتخرج على ذلك أن المسلمين إذا كانوا فى منعة وعزة وقوة بحيث يرى الامام أنهم غير محتاجين إلى الصلح فلا صلح .

أما إذا كانت جماعة المسلمين فى حاجة إلى الموادعة لنفع يجلب أو ضرر يدفع فلا بأس من أن يبتدىء المسلمون به إذا احتاجوا إليه .

ومن باب الواقع : صلح رسول الله ﷺ مع أهل خيبر على شروط اشترطت . قبل النبى ﷺ شروطهم وأعطاهم الأمان لهم على النفس والمال والعرض ـ وأماكن العبادة .

فذلك مما أجراه النبى ﷺ ، وأجرى أمثاله أصحابه رضى الله عنهم خصوصاً أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولعمر هنا سياسة إسلامية عظيمة .

ففى حياة الرسول ﷺ كان عمر يشتد على أعداء الاسلام :

١ ـ لأن الدين كان فى أول خطوات الانتشار . وفى أول تعقل الناس لقضاياه .

٢ ـ وكان الأعداء فى غلظة وقوة ، وعدم إدراك لما يدعو نبى الله إليه ، وفى زمن التعصب والحسد للرسول والمسلمين .

٣ ـ وفى حياة نبى الرحمة كان الوحى يتوالى نزوله عليه . فمهما قضى أو قال أو أجاز فإن الوحى كان هو المسعف وبه النصر ـ ولهذا كان عمر إذا رأى للاسلام عدوا تحركت نفسه . فكان يستأذن النبى ﷺ لدق أعناق من تبدر منه بادرة عداء ـ وكان الرسول ﷺ يرفض الإذن له بذلك . ومن هنا كان :

١ ـ رأيه فى قتل أسرى بدر .

٢ ـ ودق عنق عمير بن وهب الذى حضر إلى المدينة لقتل سيدنا رسول الله .

٣ ـ ودق عنق حاطب بن أبى بلتعة لأنه كتب كتاباً بعثه إلى بعض قريش يخبرهم بما كان يعده رسول الله ﷺ فى قصته المشهورة وسنذكرها .

٤ ـ واستأذن فى خلع سنتين لسهيل بن عمرو ورفض الرسول .

٥ ـ واستأذن فى دق عنق ذى الخويصرة التميمى الذى قال للرسول : إنك لم تعدل .

٦ ـ واستأذن فى دق عنق أبى سفيان زعيم التمرد على الاسلام والمسلمين فى مواقع متعددة : أشهرها لما ذهب إلى المدينة لمد أجل صلح الحديبية مدة أخرى لإصلاح الأمر بعد نقض قريش شروط الحديبية والتحريض على خزاعة وإعانة بنى بكر عليهم .

وعند الحديبية حين تولى سهيل بن عمرو المفاوضة مع رسول الله ﷺ وحضور أبى جندل ولده فاراً بدينه من قريش ويخشى فتنتهم له .

وحين كتابة المعاهدة حيث رفض أن يكتب محمد رسول الله ﷺ ، وحين قال من يأت إلى قريش فلا ترده . ومن يفر إلى محمد يرده المسلمون إلى مكة .

كان موقف عمر فى طلبه الإذن من النبى ﷺ لقتل من كانت ظواهر حالهم تؤذن بكفرهم وبغضهم للنبى ﷺ .

فذلكَ وغيره من أحوال عمر رضوان الله عليه له دلالتان :

أولاً : أن النبى ﷺ كان يتألف الناس على الاسلام ، فهو يرفض كل مايتعلق بشخصه ، فلا يوقع العقوبة على فرد أو جماعة انتقاماً لنفسه ، لأنه فى عمله وقوله وتصرفاته كان يقدم الاطمئنان على الاسلام ، ووثوق الناس كل الناس بالاسلام . إنه لا يعذب الناس فى أمر شخصى إلا إذا اتصل ذلك بالاسلام وامتد أثره إلى دعاية تشكك الناس فى دين الله وكتابه .

ففى عمـوم أحوال المنافقين وهم كثرة فى المدينة آثر صلوات الله عليه أن يكون الحديث عن الإسلام مطمئناً للبشر للدخول فيه ، وذلك عندما يعتدى منافق على سيرة خير البشر أو ينسب إليه مالا يليق به من المساوىء ظلمًا وكذباً .

فإن من زل هذه الزلة حقه العقوبة التى تناسبها ، وإذا وقعت تلك فإن من تحل عليه سيتقول على المقام ويشنع ويفترى حتى يصل إلى مابعث به النبى ﷺ ، فيشيع عن الدين مايعوق الدخول فيه والانتساب إليه والتوجس من الدعوة ، والشك فيمن يدعو إلى الله .

وكان رسول الله ﷺ يتحمل بمكارم أخلاقه مايقال لقطع تيار الحقد على الدين . فيقولون : إن محمداً جاء إلى المدينة واتخذ أهلها أصحاباً له ـ آمنوا وجاهدوا ـ وأسلموا ودافعوا ـ نصره الله بهم حتى إذا انتصر وأقام بهم الدين وبلغ ـ وهم معه ـ كتاب الله ثم التفت إليهم فقاتلهم وقتلهم .

وعندئذ : يتحدث الناس بأن محمدأيقتل أصحابه ويسمعها من لم يسلم بعد ، فيتحرى عن الاسلام ، ويبتعد عن اتباعه خشية أن يكون نصيبه نصيب الذين سبقوه . فيصاحبوه ويقاتلوا معه ثم يقتلهم كما قتل السابقين .

وبالتسامح الذي جعله الله له خلقاً ، وغرسه فيه طبعاً وعاش به معهم سيرة وعشرة وأهلاً ـ ولم يؤذ قادحاً ولم يعاقب مخالفاً . وبذلك لن يتحدث عنه أحد بعيب ولن يجد إنسان فيه مادة للوم ولا زلة يشيعها ـ ولا ملامة يتطير عنه بها . وكل ما كان يصدر عنه ﷺ ، لم يقفوا عليه فقط ، بل تزيدوا وتقولوا ونسبوا إليه ﷺ مالم يأذن به الله .

وقد تولى الوحى رد الإفك ـ كما أزال البهتان ـ ومحا الافتراء وشرع لأهله الحد . وآخذ من لم يتكامل عنه الجرم بما يناسب الزلة ـ ويزجر العثرة حتى تلتقى الأخوة على الاسلام الحنيف .

وطوال السنين التى كان رسول الله ﷺ بين أظهرهم وعمر يدرس ويتعلم . ويسمع كل ما بَلَّغَهُ نبى الرحمة وبينه رسول الخاتمة . وفعله مع أصحابه وتصرف فيه مع الموالى والمخالف .

حتى تم القرآن نزولاً ـ وكملت الشريعة نصاً وتطبيقاً .

وتدبر الأيات من يقرأها . وتفهم الأحكام من يستنبطها .

وتمت كتابة القرآن كما أنزله الله تعالى على الجلود ـ والحجارة الرقيقة والعظم واللخاف والأكتاف ـ وأودع بيت النبوة . واحتوته صدور القراء وعقول الحافظين .

واثناء زيارات الوحى بلسان جبريل عليه السلام كان محمد صلوات الله عليه وتسليماته يعرض معه مانزل من القرآن مرةً فى كل عام . حتى تناوياه الاثنان مرتين .

فتأكدت آياته وتوثقت تلاوته . وحل محلها كل آية فى مكانها . وكل سورة فى موضعها بين الجميع .

وكان ذلك تمكيناً لدين الله وتثبيتاً للنص . وفهما وإفهاماً بأنواع الدلالات العربية والشرعية .

ولم يغادر الرسول ﷺ الدنيا حتى كانت بين الأيدى الشريعة الغراء التى ختم بها

المولى شرائعه ، وأودع فى كتابه المحيط وسائل عمومها وأدوات خلودها .
ذلك هو القرآن الكريم الذى كانت آياته لمحمد هداياته وإهداؤه .
وكان عمر فى ذلك المحدث الذى أخبر عنه بذلك خاتم المرسلين والنبيين .
ابتدأ إسلامه بالقرآن . وأشفق على النبى ﷺ وهو يستقبل ساعته للقاء ربه أن يشغل بكتاب يكتبه لأمته . فكان القرآن الكريم أمام عيون عمر هو غنيمة الأمة على لسان نبيها فقال : حسبنا كتاب الله .
وتوالت حياة عمر مع القرآن . فما مرت به مهمة إلا كان القرآن أمام عينيه تقر به ، وفى عقله يتدبر معانيه . وفى قلبه يثبت ويوثق إيمانه . ويستنبىء روح الإعجاز للعلم فيما يشكل على المسلمين ، بعد أن رضى لمحمد ربه الذى عنده على الذى أثرى به الدنيا حكماً وعلماً . أدباً وفهماً . حكمة وسراً . هداية ونوراً ثم عزة ونصراً .
ففى أول سورة « طه » تحرك قلب عمر سؤالاً عن مكان محمد بعد أن كان سيفه خارج غمده ليقتل محمداً ، فإذا به يحيا ويحيى أمه الاسلام بالقرآن مع محمد .
ويكون لأهم الأحداث عند عمر القرآن .
ومهما واجهته الأحداث فإنه كان يجد المخرج منها فى القرآن ، وتدور الحياة دوراتها فى مجتمع الايمان . فيجد عمر بن الخطاب النهوض بها ويشاهد طريق الرقى ووسائل التقدم بنظره فى القرآن .

آية النهى عن إلقاء المودة لعدو من أعداء الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » .

نزلت هذه الآية فى حق مسلم بدرى من السابقين الأولين فى الاسلام .

وهو أيضاً ممن استضاء بنور النبى ﷺ فى المدينة ساكناً المنورة مع خاتم المرسلين ﷺ .

ولم يفارق الجماعة إلى أى بلد ـ وقد مرت به الأيام فى جماعة المسلمين يؤمهم سيدنا محمد ﷺ .

وقد مرت الأحداث فى المدينة المنورة وهو خبير بها ـ لا يغيب عنه أمر من الأمور ولا شك أن حضور أبى سفيان إلى المدينة ليطلب امتداد المعاهدة المبرمة بين سيدنا محمد ﷺ وأهل مكة . وقد باشر مهمتها عن قريش سهيل بن عمرو .

وعاد أبو سفيان دون أن يظفر بطلبه وهو أمل قريش بعد أن نقضوا عهد الحديبية فى حرية من ينضم إلى المسلمين أو إلى قريش ، فكانت خزاعة فى حلف الرسول ﷺ ، كما انضم إلى قريش بنو بكر . وقد خانت العهد فى مساعدة قريش بنو بكر كما يوضح الأمر .

وروى الأئمة عن على رضى الله عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « ائتوا روضة [1] خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » قال على : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة . فقلنا لها : الكتاب أخرجيه . فقالت : مامعى كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم فيه ببعض أمر الرسول (ص) فقال : نبى الله ﷺ : ياحاطب ماهذا . قال حاطب : لا تعجل على يارسول الله - إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش .

(قال سفيان : كان حاطب حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها) وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى - حيث فاتنى ذلك من النسب فيهم ، ولم أفعل ذلك كفراً أو ارتداداً عن دينى ، ولم يكن ذلك منى رضا بالكفر بعد الايمان .

فقال رسول الله ﷺ : صدق .

فقال عمر : دعنى أدق عنق هذا المنافق .

فقال ﷺ : إنه شهد بدراً - ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » فأنزل الله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » .

واسم المرأة الظعينة [2] حاملة الكتاب : سارة من موالى قريش .

أما الكتاب فقد ذكر حاطب فيه مايأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم وأنجز له موعده فيكم فإن الله وليه وناصره .

وذكر القشيرى والثعلبى أن حاطب بن أبى بلتعة كان رجلاً من اليمن - وكان له حلف بمكه فى بنى أسد ابن عبد العزى رهط الزبير بن العوام .

وقيل إنه كان حليفاً للزبير فقدمت سارة من مكة ، وهى مولاة أبى عمرو بن صفى بن هشام بن عبد مناف - وكان رسول الله ﷺ يعد العدة ويتجهز لفتح مكة .

وقيل : كان هذا فى زمن الحديبية . فقال لها الرسول ﷺ : أمهاجرة جئت ياسارة ؟ فقالت : لا . قال : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : فماجاء بك ؟

---

١ - روضة خاخ اسم مكان بين مكة والمدينة على بعد ١٢ ميلاً من المدينة المنورة .

٢ - الظعينة اسم للمرأة فى الهودج ولا يطلق هذا اللفظ إلا .

قالت سارة : كنتم الأهل والموالى والأصل والعشيرة ـ وقد ذهب الموالى ، تعنى قتلوا فى بدر . وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى . فقال ﷺ : فأين أنت عن شباب أهل مكة ؟ وكانت سارة مغنية . قالت : ماطلب منى شىء بعد وقعة بدر . فحث رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب وبنى المطلب على إعطائها فكسوها وأعطوها وحملوها فخرجت إلى مكة وأتاها حاطب فقال : أعطيك عشرة دنانير وبرداً على أن تبلغى هذا الكتاب إلى أهل مكة . وكتب فى الكتاب أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم . فخرجت سارة ونزل جبريل فأخبر النبى ﷺ بذلك ، فبعث عليا والزبير وأبا مرثد الغنوى . وفى رواية : عليا والزبير والمقداد[1].

وفى رواية أرسل عليا وعمار بن ياسر .

وفى رواية عليا وعمارا وعمر والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد ـ وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها ـ فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها » . فأدركوها فى ذلك المكان فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت مامعها كتاب ـ ففتشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتاباً . فهموا بالرجوع .

قال على : والله ماكذبنا وماكذَّبنا وسل سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجردنك ولأضربن عنقك . فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها وفى رواية من حجزتها ، فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ .

فأرسل إلى حاطب فقال : هل تعرف الكتاب ؟ قال نعم .

وروى أن النبى ﷺ لما دخل مكة أمن جميع الناس فى يوم الفتح إلا أربعة هى أحد الأربعة .

والنص فى هذه الآية أصل فى تحديد موقف المسلمين من الكفار : فلا توالوهم « لا يتخذ المؤمنون الكفار أولياء من دون المؤمنين » « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » .

ولما سمع حاطب الخطاب بالنداء بالإيمان « ياأيها الذين آمنوا » غشى عليه من الفرح بخطاب الايمان .

وقوله تعالى « تلقون إليهم بالمودة » أى بالظاهر ، لأن قلب حاطب كان سليمًا بدليل أن النبى ﷺ قال لهم : « أما صاحبكم فقد صدق » وهذا نص فى سلامة فؤاده

---

١ ـ تفسير القرطبى ح ١٨ ص ٥٠ ، ٥١ .

وخلوص اعتقاده . وتقدير الكلام على زيادة الباء أو عدم الزيادة : تلقون إليهم أخبار نبى الله ﷺ بسبب المودة التى بينكم وبينهم .

ومسألة حاطب هذه تطمئن المسلم الذى سلم فؤاده وصح قلبه وسلم اعتقاده . فلا كفر يصيبه باتخاذ يد عند الكفار ولم ينو الردة من الدين . فهو كما صرح للرسول ﷺ قصد أمراً هو حماية أهله من إيذائهم مادام قلبه خالياً من قصد الردة .

ولكن الأسلم ألا يتخذ نجاة إلا عند المسلمين وأن يظل بعيداً عن شائبة الفساد ـ فإن حاطب بن أبى بلتعة كان له رصيد ثابت مدخر وهو فى بدر ومن يظفر بنصيب بدر التى قام الاسلام بها ؟

ونجد من المناسب هنا أن نذكر حكم التجسس والجاسوس . فإن الظعينة التى حملت كتاب حاطب إلى المشركين فى مكة تعتبر بالنسبة لحال المسلمين يومها .

وبالعزم الذى كان عند رسول الله ﷺ حيث أعد العدة للفتح ـ وأن عادته أنه كان يعلن عن العمل الذى سيقوم به ، والناس الذين كانوا يترقبون أى ظرف لإيقاع الايذاء بالنبى ﷺ والمسلمين .

وكان فى عزمه أن يباغت قريشاً . ودعا ربه أن يأخذ عليهم السمع والأبصار فلا يعلموا أمره . ومع هذا كان كتاب حاطب ضد ذلك كله فى غزوة الفتح .

ونظراً إلى أن عمل حاطب بكتابته إلى العدو يشبه التجسس على قومه وإمامه . وخصوصاً وأن رسول الله ﷺ خالف عادته التى التزمها فى كل تجهيز للدفاع أو للاغارة على من يعد العدة للاعتداء على المسلمين . فهو فى تجهيزه لفتح أم القرى بعد أن اعتدت قريش على خزاعة التى انضمت بمقتضى مقررات الحديبية فأعانت من اعتدى عليهم . ولذلك كان طلب عمر بن الخطاب إذن الرسول الله ﷺ فى دق عنق حاطب فلم يأذن له . وذكر المبرر وهو أنه من رجال بدر ولهم مقامهم وتضحيتهم فإننا نذكر حكم الجاسوس للعلم به والعمل بما يأذن به الدين .

التجسس عمل قبيح يأباه الدين والخلق .

وحالة الحرب حالة استثنائية لها ظروفها . وعلى القيادة الإلمام بحالة عدوه ـ وإعداد العدة لإحباط العدو ، واتقاء غدره . وشرور التجسس عليه .

ولم يخف على نبى الله مايجب عمله ، ومايعده للعلم بأسرار عدوه .

ونذكر من ذلك أمثله :

١ ـ أرسل النبى ﷺ عبد الله بن حدرد الأسلمى يوم حنين ، فأمره أن يدخل فى

عمق العدو حتى يعلم ماعنده ثم يأتى به إليه ـ وقد أدى مهمته [1] .

٢ ـ وبعث بسبس بن عمرو الجهنى ، وعدى بن الرعباء قبل غزوة بدر يتجسسان على أبى سفيان للعلم بأخباره . وهو رأس العداء فى مكة ، وكان على وشك الوصول بتجارة قريش من الشام [2] .

٣ ـ وقد بلغه يوماً أن زعيم بنى الحيان من هذيل (خالد بن سفيان بن نبيح) يجمع له الناس ليغزوه بهم بعد معركة أحد ، فبعث ﷺ من يعلم جلية أمره وهو عبد الله بن أنيس ـ وقد انتهز عبد الله هذه الفرصة وقتله [3] .

٤ ـ وأرسل صلوات الله وتسليماته عليه حذيفة بن اليمان يوم الخندق وقال له : ادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون [4]؟ ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا .

ويدل ذلك على أن الاسلام يجيز العلم بحال الأعداء الذين يتربصون بنا لاتقاء شرهم . وكان الاسلام دائماً فى موقف المجنى عليه . فالاعتداء كان أول أمره من العدو ـ ويسمى هذا العمل مايسمى فإنه لدفع الشر والفساد عن أهل الحق . فالوقوف على حالة العدو ومايعده يستوجب أن نعمل كل شىء يرهب ويحبط عمل الأعداء .

ويجوز أن يعهد بذلك إلى المسلم وغير المسلم . ورائد ذلك أن النبى ﷺ استخدم فى الهجرة دليلاً كان أميناً وثق به ﷺ وصاحبه أبو بكر ، وكان مشركاً على دين قريش قبل الاسلام . والمهم الصدق فى إخباره [5] ومن خلال أهمية عمله يفرض له الأجر بسخاء .

وإذا ظفرنا بالعدو يتجسس علينا فإن العقوبة التى توقع عليه ينبغى ان تكون رادعة حتى لا يتكرر على المسلمين هذا الشر . وقد وقعت الحوادث الآتية وهى كافية لإعطاء هذا الأمر مايناسبه :

١ ـ فالواقعة الأولى : جاءت فى البخارى ومسلم عن سلمة بن الأكوع . فقد حدثنا فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فبينا نحن نتضحى (نأكل ضحى) إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ثم تقدم يتغذى مع القوم وجعل ينظر وفينا ضعفة

---

١ ـ فتح البارى ح ٨ ص ١٩ .
٢ ـ زاد المعاد لابن القيم ج ١ ص ٣٤٢ .
٣ ـ فتح البارى ح ٧ ص ٢٦٦ .
٤ ـ المغنى لابن قدامة ج ١٠ ص ٤١٤ .
٥ ـ المغنى لابن قدامة ج ١٠ ص ٤١٤ .

(حالة ضعف وهزال) ورقة فى الظهر - وبعضنا مشاة - إذ خرج يشتد فأتى جمله فقعد عليه فأثاره فاشتد به الجمل .

وزاد البخارى - أن النبى ﷺ قال : « اطلبوه فاقتلوه » قال سلمة : وخرجت أشتد حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته - فلما وضع ركبته فى الأرض اخترطت سيفى فضربت رأس الرجل فندر « أى سقط » ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه [1] .

فهذا جاسوس جاء ليرصد أحوالنا لحساب العدو - ولم يكن مسلمًا - ولا مؤمناً استناداً إلى عقد أمان من واحد أو من جماعة . وقد أمر النبى ﷺ بقتله ونفذ الأمر فيه . وهو للوجوب فى أصله ولم يوجد مايصرف عنه .

٢ - والحادثة الثانية : روى أحمد وأبو داود عن فرات بن حبان : أن النبى ﷺ أمر بقتله . وكان من أهل الذمة . وقد جاء عيناً لأبى سفيان . وأبو سفيان رأس الأعداء . كما كان حليفاً لرجل من الأنصار - فمر بحلقة من الأنصار فقال : إنى مسلم . فقال رجل من الأنصار : يارسول الله إنه يقول : إنه مسلم . فقال رسول الله ﷺ : إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم - منهم فرات بن حبان [2] .

وهذا الجاسوس يختلف عن سابقه بأنه كان يعيش مع المسلمين ذمة لهم من رعايا الدولة الاسلامية وإن لم يعتقد دينها . وكان يمارس عمليات التجسس . ولكنه لم ينج من العقوبة . فقد أمر الرسول ﷺ بقتله لجاسوسيته . ولولا أنه أقلع عن هذا الفساد وتاب عنه واعتنق الاسلام فعلاً وصادقاً - فقد صدقه نبى الله ﷺ - للقى المصير الذى يستحقه .

وكل جاسوس يلجأ إلينا متنصلاً من عمله القبيح وقبلناه وبذلنا له الامان ، فإن ثبت على ذلك كان خيراً ، وإن خاننا خلعنا أمانه وأوقعنا به مايستحقه .

وقد قال أبو يوسف للخليفة الرشيد : وسألت ياأمير المؤمنين عن الجاسوس ، الجواسيس يوجدون من أهل الذمة أو أهل الحرب فاضرب أعناقهم .

٣ - أما الحالة الثالثة : فقد رواها البخارى ومسلم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال : انطلقوا حتى

---

١ - شرح مسلم ج ١٢ ص ٦٧ .

٢ - نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ٨ .

٣ - الخراج لأبى يوسف ص ٢٢٦

تأتوا روضة خاخ (المرأة الراكبة) ومعها كتاب . وهى سارة التى تقدم ذكرها مع قصة حاطب بن أبى بلتعة[1].

وحاطب ممن استأذن عمر رسول الله ﷺ فى دق عنقه . ولم يأذن الرسول لعمر فى قتله . وذكر صلوات الله عليه عذراً يدفع عن حاطب العقوبة وإن كان بعمله قد استحق أن يقتل . وقد قبل منه النبى ﷺ عذره . ولم يكن حاطب نفسه يأمن على نفسه لولا أن تداركته مكارم الرسول ، وبذله فى بدر جهاداً فى سبيل الله ولذلك أغمى عليه لما سمع خطاب الله بالنهى عن موالاة الأعداء « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء . . . » .

وهـذا هدى النبى ﷺ جلى واضح لا خفاء فيه ولا غموض ، كما أنه خال عن الإفراط والتفريط ، فإنه هدى الخالق العادل الرحيم الحليم .

ولقد كان لعمر بن الخطاب فى كل المواقع قدوة من عمل النبى وحكمته . وكان أقدر الصحابة على إدراك أسرار التشريع وحكمته .

---

١ - نيل الأوطار للشوكانى ج ٨ ص ٨ .

حاطب بائع الزبيب

مر يوماً فوجد حاطب بن أبى بلتعة فى السوق وامامه موازيين من الزبيب فسأله عمر عن سعر البيع ـ فأخبره ـ فوجد عمر أن السعر الذى أخبره به حاطب أدنى مما يبيع به التجار . وهم قادمون إلى المدينة . وعمارة السوق بالتجارة تكثر الحاجات فى المدينة ـ وإذا قطع دونهم بسعر منخفض ـ يؤدى إلى رجوعهم وخلو التجارة عن حاجة المسلمين . فأمره عمران يحمل الزبيب إلى بيته بعيداً عن سوق المدينة ـ ولكن الأسعار تتحول وتتغير بالصعود والنزول وليست على وتيرة واحدة ثابتة وشعر بأنه ضيق على حاطب دون مبرر وأنه لن يؤدى إلى ماتصوره . فذهب عمر بنفسه إلى حاطب فى بيته وقال له : إن الذى اشرت عليك به ليس عزيمة وإنما هو رأى راه فحيث كنت فبع وحيث أردت فبع .

وقد نقل ابن القيم عن الامام مالك رضى الله عنهما لو أن رجلاً أراد فساد السوق فحط عن سعر الناس لرأيت أن أقول له إما أن يلحق بسعر الناس وإما رفعت [1] »

والقصة الكاملة لزبيب حاطب ورأى عمر أن حاطباً قعد بزبيبه وعرض سعراً أقل من المثل . وكانت قافلة من التجار فى طريقها إلى البلد وتحمل معها زبيباً . وقد يضر سعر حاطب بالتجار القادمين من الطائف ولو استمر أمر حاطب على ماكان رآه ـ لدخل مع هذه القافلة فى منافسة ضارة بهم والضرر مرفوع لأنه سيؤدى إلى إحجامهم

---

١ ـ الطرق الحكمية لابن القيم صـ ٢٧٤ .

عن الحضور إلى المدينة وجلب السلع التى يحتاج إليها المسلمون ولو بقى أمره على ماهو عليه . فإما أن يجبروا على موافقته وفى ذلك ضرر عليهم .

وكانت عبارة عمر مبينة لقصده أما أن ترفع السعر إلى ثمن المثل أو تغادر السوق وتعرض سلعتك خارجه .

ومن الطبيعى أن حاطباً حدد السعر على أن يكون له ربح . ونزول الاسعار إلى مثل الثمن الذى حدده حاطب يرخص السعر لكل الناس وإن ضمن ربحاً أقل فذلك نفع للعامة .

ولذلك فكر عمر فى الأمر فرأى أن إخراج حاطب من السوق يضره مع أن يعرض بها يحقق مصلحة للناس . فذهب إليه بنفسه ليأذن للرجل فى أن يبيع كما يرغب وفى المكان الذى يراه مادامت مصلحة الناس لم تمس فمهمته أن يحارب الغلو فى الأسعار ليرجعها إلى المثل .

الزبرقان وابن السبيل والماء

عن عبد الله بن أبى ربيعة أنه نزل على الزبرقان بن بدر فمنعه الماء ، وكان عبد الله قد طلبه منه لنفسه - فألقى بنفسه فى القبائل فأكرموه فمدحهم بشعر له وهجا الزبرقان .

فاشتكى الزبرقان من الهجاء لعمر ، ووقف عمر على السبب أنه منع الماء عنه ولم يمكنه من أن يشرب ، وكانت إجابة الزبرقان تقتضى أن يمنع الماء عنه وعن غيره ممن يحتاجه فقال : ياأمير المؤمنين : ألا أمنع ماء حفر مجاريه آبائى وحفرته بيدى ؟

وتلك من باب الضرر بالمحتاج وهى من إساءة استعمال الحق . والأصل أن هذا التصرف مما يدخل فى اختصاص عمر بحكم الولاية العامة للإمام ، والأصل أن تولية الإمام منوطة بالمصلحة فكل مايراه مصلحة فله أن يأمر به - وإذا وجد فى تصرف ضرراً يفوت المصلحة فله منعه .

وحبس الزبرقان الماء عن عبد الله ضرر به - وليس على الزبرقان ضرر فى تمكين عبد الله .

ومثله نكاح الكتابيات من النصرانيات واليهوديات ، فقد أباح الزواج بهن للمسلم ، نص الكتاب « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » .

فإذا أدى هذا المباح إلى ضرر فإن للإمام منعه . وقد نهى عمر عنه حذيفة وقال جواباً على ما أمر به من التخلص منه : « أخاف أن تواقعوا الموسات منهن » وفى

رواية « فإن فى نساء الأعاجم خلابة وكفى بذلك فتنة على نساء المسلمين » أى بسبب مافيهن من الجمال يغلبنكم على نسائكم من المسلمات .

الناس شركاء فى ثلاثة

شكى الزبرقان الشاعر العربى عبد الله بن أبى ربيعة بأنه هجاه شعراً ومدح غيره من القبائل العربية . والشاعر والزبرقان من المسلمين .

وقد بحث عمر رضى الله تعالى عنه الشكوى ، فأحضر الشاعر وسأله : هل هجوت الزبرقان ؟ فقال : إنه اشتد به الظمأ فطلب من الزبرقان أن يتقدمه بالماء ليروى ظمأه وأحضر الزبرقان وسأله : هل منعت الماء عن ابن السبيل ؟ فقال : نعم إن الماء على أرض لى ورثتها عن آبائى وأجدادى ، وقد فجروا الماء بأيديهم ، فأنا أولى به عن آبائى وأجدادى .

واجاب عمر : لا أدرى أنك منعت الماء عن ابن السبيل فلا أساكنك .

وعمر رضى الله عنه أمير المؤمنين وإمام هذه الأمة ، والدين الاسلامى الذى يدين به الشاكى والآخر هو الدين الاسلامى ، وهو دين أمير المؤمنين ورعيته ، ومن الرعية الشاعر عبد الله والزبرقان ، يقرر بأن الناس شركاء فى ثلاثة ـ وأولها : الماء ، والماء يتفجر من الأرض بأمر الله وفضله ورحمته ، وإن الله عز وجل لم يخلق عباده ليعذبهم ، وحبس الماء عن المرء تعذيب له ، والماء ينساب فى مجاريه وأوديته ، وتنبع به مجرى العيون والآبار ، ولم يرض المولى سبحانه أن يعذب الحيوان ، فإن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلاهى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض .

ورحم الله عبداً مر على كلب فرآه يلهث عطشاً وكان بجواره بئر لم يستطع الكلب أن يشرب منه لتعذره ، فنزل الرجل درجات فى البئر حتى وصل الماء من البئر ولم يجد إناءاً ليملأه بالماء ليسقى به هذا الحيوان ، فخلع نعله وأخذ يغرف الماء فيه وهو فى مكانه من البئر حتى سقاه ، فشكر الله للرجل حسن صنيعه لإغاثة الكلب .

فقال عمر : والذى نفسى بيده إن بلغنى أنك منعت الماء من أبناء السبيل لا تساكننى أبداً . وقد ظهر فى جواب الزبرقان إصراره على نفس التصرف الجاهلى ففيه أثره . وفيه عدم الشعور بحاجة الانسان لما يحفظ عليه الحياة ، ولم يكن عمر على استعداد ليسمح بذلك مما لايرضاه دين ولا تسمح به المكارم الانسانية التى يقررها الاسلام .

وفى ظل الـدين القيم خلق اسمـه الإيثـار وهـو تفضيل الإنسان لغيره فى هذه المواطن . فالماء نعمة أجرى الله مجاريه نعمة من لدنه . ولم يستطع عبد إخراج قطرات منه مهما حفر ومهما بالغ فى قوة الحفر أو ملك من الأرض ـ فمن هذا الذى يقدر على إيجاد بئر أو نبع الماء أو عين تجرى بالحياة سحا لا ضيقاً ولا قبضاً ، وهو حافظ لحياة كل حى من حيوان أو إنسـان حتى الـوحـوش الكـاسرة قد وهبها الله القدرة على استخراج الماء رغم أنف من حفر ، ورغم أنف من ملك من أرض . ولهذا كانت الحكمة الاسلامية فى هذا الحكم العظيم « الناس شركاء فى ثلاثة أشياء : الماء ، الملح ، الكلأ »

وفى رواية أن الشركة فى الماء والنار والكلأ . والماء فى أول الثلاثة لأنه أصل أصيل فى الحياة واستمرارها لكل حى « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

ولم يهمل الشارع المالك عن بخله وآثار حرصه . فالماء الذى يملكه الشخص وله أن يمنعه عن غيره هو الذى يحوزه فى إناء خاص ، حيث يصير مملوكاً بالحيز فيبيعه ويتقاضى ثمنه ويساوم عليه أجرة على نزحه ونقله وتملكه ببعض عمله لقاء شىء يبذله وهـو قوة وعمل وإناء وفعل ـ حتى إذا ضاقت نفس أى حى بعطش لا يجد له ريا إلا بقهره لصاحب الماء الذى ملكه فى أى إناء فإن له أن يقهره عليه .

أما مافى البحار والأمطار والآبار والعيون التى يسيل فيها الماء وله فيها مستقر فليس لأحد فى ذلك شركة مع الله خالق الأنفس ومفجر الماء . وفى كل حال فإن حبس الماء وحبس الطعام والاستهاته على وضع الحدود ومحاولات التجارة بأرواح العباد ، خلق مذموم وتصرف من ملوم ليست له عند الله قيمة ، وليس له بين العباد محبة أو مروءة . ومع هذا فإن الدهر حول قلب ـ لا يبقى المال فى يد ولا يقر النعمة المحبوسة عن عباد الله ـ فالله خالق وحليم . والله منعم وكريم ـ وكم يسدى على الناس بما يجحده الناس ولمثل هؤلاء الذين يستهينون بالحياة وقد خلقها الله وجعلها فى كل إهاب . وليس لمن سوى الله حق الاعتداء عليها بالحرمان والقتل جوعاً أو عطشاً .

بين عمر وجبلة بن الأيهم والعدل

كل صلة بين عمر بن الخطاب وبين أحد الرعية كانت تنتج أصلاً من الأصول التى اعتمدت عليها الدولة ، سواء كانت من المبادىء المقررة المعلومة عنده وعند من يرتبط به عمر ، فتكون مهمته الجليلة فى التطبيق الأمين لمقررات الشريعة كالعدل والأمانة والمساواة .

وفى بعض الأحوال كانت الحادثة تحصل ـ ثم تستتبع إصدار قرار ينفذ ، لأن فيه الخير للأمة أو دفع الشر عنها .

والحادثة الآتية مما استتبعت التطبيق الصحيح للعدل . والعدل من المبادىء المقررة فى الأديان . وهو ذو أهمية بالغة فى قيام الملك واستتباب الأمن بين الناس .

جبلة بن الأيهم ملك غسانى حارب قومه الاسلام وانحازوا إلى الروم . وكان هذا الملك آخر ملوك الغساسنة .

وقد أسلم جبلة فى عهد عمر بعد أن شاهد انتصار المسلمين العرب فى واقعة اليرموك فى العام الثالث عشر ـ ولكنه عاد إلى الروم بعد زمن قليل من إسلامه وتحول إلى النصرانية واستقر فى بلاد الدولة الرومانية .

وكان سبب ارتداده عن الاسلام إلى النصرانية الحادثة البسيطة الآتية :

بمقتضى إسلامه شرع فى أداء الحج بالطواف حول الكعبة ، وبينما هو فى طوافه وخلفه أعرابى من بنى فزارة يطوف كما شرع جبلة فى طوافه ، وكانت عادة قوم جبلة إطالة الملابس (الإزار أو الرداء) فحين يقف أحدهم يبرز القدر الذى يزيد عن

جسمه يمسح المكان الذى يقف فيه . وفى طوافه كان الأعرابى بلا قصد قد وقعت قدمه على طرف الإزار فالتفت جبلة إلى هذا الأعرابى وضربه بيده فهشم أنفه . واشتكى الرجل إلى عمر أن جبلة ضربه فهشم أنفه فحكم عمر للرجل بالقصاص من جبلة إن لم يرض الأعرابى أو يطلب منه العفو عن القصاص . فقال عمر لجبلة : دونك الرجل الشاكى فارضه وإلا فإنه له حق القصاص منك ، والأعرابى لم يقصد وطء الإزار ، فقد كان الزحام شديداً والناس تتدافع فى طوافهم للحج أو العمرة . ورفض جبلة وقال : أنا ملك وهو سوقة . فكيف يقتص الأعرابى منه ؟ وأفهمه عمر بأنهم أسلموا ، والاسلام سوى بينك وبين الأعرابى ، وأصر عمر على التنفيذ ليأخذ الرجل المضروب حقه .

فطلب جبلة من عمر أن ينظره إلى الصباح ليفكر فى إرضائه أو القصاص . وذهب جبلة بليل وارتد عن الاسلام لأنه لم يحتمل العدل الذى تقضى به المساواة بينهما فى الاسلام . فذهب صريع كفره وشقى بالمظهر الكاذب الخداع . . إنه ملك فكيف تمس ذاته ؟ واستقر الحكم . . فلا ملك يميز عن المساواة المقررة فذلك هو شرع الله . وعز على الملك الغسانى أن يكون هو والعربى سواء . وغضب على ذلك واستكثر أن يضربه الرجل ضربة بضربة وهو الذى بدأ بالاعتداء .

ورأى عمر منه النفرة وعرض أن يرجع عن دين الاسلام الذى لم يبق له عز الملك وقال له عمر : إنك أسلمت . فإذا رجعت وصرت إلى النصرانية قتلتك فذلك حكم من يرتد عن الاسلام بعد أن دخل فيه .

وكان طلبه الإنظار إلى الصباح ليفكر فى القصاص أو إرضاء الأعرابى وأمهله عمر ، ولكنه كان قد بيت الهرب والخروج من المدينة ، وكان معه خمسمائة من قومه فهربوا ليلاً ولحقوا بالروم ، ففرح بهم ملك الروم « هرقل » واستقبلهم فرحا بهم مرحباً باستيطانهم فى بلاده . ولكن بعد فترة ندم جبلة على مصيره وأسف لما فعل وهجر وطنه ليستقر نهائياً فى بلاد الروم .

وهذه الحادثة تمثل العدل الذى قرره الاسلام واشتهر به عمر . وكان عمر طوال حياته مثالاً فى تطبيق مبادىء الاسلام بأمانة ودقة . ولم تطب لجبلة الإقامة فى القسطنطينية . وأنشد شعراً يبكى فيه مصيره .

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
فياليت أمى لم تلدن وليتنى ... رجعت إلى القول الذى قال عمر

ولم يكن الغساسنة ممن يسهل عليهم الوجود فى بلاد الروم بتبعية ذليلة وهجر الوطن والشعور بالغربة . وكانت لهم درجة عظيمة من الحضارة والعزة ، وكانت بلادهم محصنة بكثير من الحصون . وكانت البيع والكنائس عندهم أكثر من غيرهم . وكان الملوك منهم أصحاب هيبة وفخامة حتى فتنوا الجوارى من الروم ، حتى مبانى بلادهم كانت مجللة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منهم ، كما كانت لهم فنون حربية وطرق دفاع وتمرينات عسكرية ، واقتبسوا كثيراً من الكلمات اليونانية التى لم تكن معلومة عندهم مثل اسم الكنيسة والراهب .

وقد ضيع ذلك كله بتمرده على العدل الذى كان يحقق له ولقومه العزة والاحترام فى الوطن الاسلامى الممتد من أقصى الحدود - والذى قام على العزة والحرية - والذى يشعر أهله بالقوة والعدل والاستقامة . وتمسك جبلة بالاستعلاء على الناس فلم تنصهر نفسه بالمكارم الاسلامية ولم يتذوق طعم القيم الدينية التى أرساها الاسلام وحلاها النبى المبعوث بها الذى كان خلقه القرآن - والتى دخلت أبواب التطبيق بين أى فرد مع الخليفة نفسه .

وعمى عن الرؤيا الباهرة التي رسم صورتها الكريمة عمر بن الخطاب ومن بعده اقتداءً بالنبى وامتثالاً لأوامر القرآن الكريم .

ألم يسمع بما كان يأمر به عمر الذى تأبى على قضائه العادل . ولو بينه وبين أى فرد من الناس . إن النفس التى قامت على الأنانية ، وعاشت على الاستعلاء لا تشعر بجلال المكارم التى قررها الاسلام لتربية المسلم على مارضى الله ونفذه رسوله .

ورحم الله عمر أمير المؤمنين الذى أصبح فى صفحات الدهر أنشودة تعزفها ألسنة المظلومين - وتعتز بها الانسانية فى كل مكان وفى كل عصر ومصر والصلاة والسلام على خاتم المرسلين رحمة الله للعالمين .

عمر والهرمزان
الهرمزان ونقضه المتكرر للعهود

- نقض الهرمزان عهوداً متعددة مع المسلمين ـ وقد أرسل عتبة بن غزوان خبر نقضه الأخير واستعانته بالأكراد .

وقد رد عليه الخليفة بأن يتوجه إليه ـ وقد أمده بالمدد مع خرفوص بن زهير السعدى مع جيش البصرة فعبروا إليه وقاتلوه وهزموه . وقد أرسل الهرمزان خرفوصاً فى طلب الصلح فأجيب إليه بإذن الخليفة واستمر الهرمزان فى صلحه ، وقد منعه المسلمون وأهل الذمة والمسلمون من الأكراد ثم نزل الجبل ومعه المسلمون وأهل الذمة فشق عليهم . فكتب عمر إليه بأن ينزل السهل ولا يشق على مسلم ولا ذمى وألا تدركه فترة ولا عجلة فيكدر دنياه ويذهب بآخرته .

وقد حدث ما دعا عمر إلى بعث النعمان بن مقرن القائد العام إلى الهرمزان بعد العصيان فقاتله النعمان وهزمه فلحق ببلد تدعى « تستر » ، وقد تتبعه المسلمون ومعهم النعمان فحاصروا الفرس وأبلى بلاء حسناً البراء بن مالك وعدة من البصرة والكوفة واستمر حصار المسلمين لتستر وأرسلوا الهرمزان إلى المدينة والخليفة ووصلوه إلى هناك ثم ألبسوه كسوته الحريرية والذهب والتاج المكلل بالجواهر ليراه الخليفة بحليته وياقوته .

وقد توجهوا إلى المسجد ومعهم الهرمزان فوجدوا الخليفة عمر نائماً فى المسجد والدرة

فى يده وسأل الهرمزان أين عمر ؟ فدلوه عليه . وسأل : أين حرسه وحجابه ؟ فقالوا ليس له حرس ولا حجاب . فقال الهرمزان : ينبغى أن يكون نبياً .

واستيقظ عمر فرآه فقال الخليفة : الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وأشباهه . ثم أمر عمر بنزع ما عليه وأن يلبسوه ثوباً صفيقاً ثم قال له عمر : كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله . فقال : ياعمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا . فقال عمر : ماحجتك وماعذرك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال الهرمزان : أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك ، فقال عمر : لا تخف ذلك وطلب الماء ليشرب فأحضروا له الماء فى قدح غليظ فقال : لو مت عطشاً لم استطع أن أشرب فى مثل هذا القدح ، فأتوا إليه بالماء فى قدح رضيه هو . فقال الهرمزان : أخاف أن أقتل قبل أن أشرب الماء . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب فأكفأ الإناء بالماء فقال عمر : أعيدوا عليه . ولا تجمعوا عليه العطش والقتل . فقال الهرمزان : لا حاجة لى فى الماء وإنما أردت أن أستأمن به فقال عمر : إنى قاتلك فقال الهرمزان : لقد أمنتنى . فقال أمير المؤمنين : كذبت فقال أنس بن مالك : صدق ياأمير المؤمنين إنك قد أمنته . قال عمر : ياأنس أنا أؤمن قاتل البراء بن مالك ومخرمة بن ثور ؟ والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك ؟ قال أنس : قلت : لا بأس عليك حتى تخبرنى ولا بأس عليك حتى تشرب .

وقال من حوله مثل ذلك . فأقبل عمر على الهرمزان وقال خدعتنى ، والله لا أخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وأصبح من التابعين بإحسان ففرض عمر له العطاء على ٢٠٠٠ وكان يترجم بين عمر والهرمزان المغيرة بن شعبة .

ثم قال عمر : هل يؤذى المسلمون أهل الذمة ؟ لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة ولذلك ينتقضون ؟ فقال الوفد : لا نعلم إلا وفاءً . قال عمر : كيف هذا ؟ فقال الأحنف بن قيس : ياأمير المؤمنين : إنك نهيتنا عن الانسياح فى داخل البلاد وإن ملك الفرس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلونا مادام مليكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وإن مليكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم فهناك ينقطع رجاؤهم . فقال عمر : صدقتنى والله وصمم على اتباع مشورة الأحنف .

وقد ساعد الملك الفارسى الملوك المحيطون به من كل الجهات وفى كل الحدود الفارسية من الشمال والجنوب والشرق والغرب .

فكتب سعد إلى عمر بذلك ، ولكن فى نفس الوقت جاء أهل الكوفة بشكوى ضد سعد لعمر واتهموه بأنه لا يعدل فيهم . فقال عمر : والله لا يمنعنى مانزل بالمسلمين عن النظر فى شكواهم ، وطلب سعد إليه فحضر وحقق معه فى شكواهم مع محمد بن مسلمة وهو الذى تتبع الشكوى مع الشاكين والمشكو فى حقه ، وظهرت براءة سعد من الشكوى ، ولكن عمر اعتبر الأحسن وهو ألا تكون العلاقة بين الوالى والرعية وبالأحرى ألا تكون العلاقة بين الرئيس والمرءوس مبنية على البغض والعداء فإن ذلك يؤدى إلى الفشل وضياع المصالح التى يؤتمن الحاكم عليها ، وهو أعظم مايناط به . فقرر عزل سعد مع براءته من الادعاءات الوهمية . ولا يعتبر ذلك عزلاً للوالى يؤثر على قدرته وسمعته ، فاعتبرها عمر من باب الاحتياط . وليؤدى سعد مهمته فى جهة أخرى . لا ينظر سعد إلى من يرعاهم نظرة تمردهم وجحودهم لخدمته ، واللجوء إلى الكذب على من يختاره أمير المؤمنين لرعايتهم سوى من كذبوا عليه .

وولى عمر بعد سعد النعمان بن مقرن المزنى ، وللنعمان جهود مشكورة وبلاء عظيم وجهاد صادق . وأرسل عمر إلى النعمان عهد الولاية الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن [1]. سلام الله عليك ، أما بعد فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو- فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة بمدينة « نهاوند » فإذا جاءك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفروهم ولا تدخلهم غيضة فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار والسلام عليك » . ثم أمره بالمسير إلى الماء لتجتمع عليه الجيوش هناك .

لبى النعمان بن مقرن أوامر أمير المؤمنين فتوجه إلى ماأمره به عمر . وجاهد النعمان جهاداً لا ينسى فضله . فقد انتصر فى موقعه الذى حدده له عمر - ومن العجيب أن يتولى عمر توجيه هذه الجموع لتدخل فى الاسلام الدولة الفارسية . وذلك مجد وفخر ومعجزات فى الاسلام .

والنعمان الذى أحرز هذا الانتصار لم يتعلم فنون الحرب ، ولم يتدرب على مواقع ولم يباشر مثل مافتح الله عليه من بلاد فارس . وكان الثمن استشهاده .

فقد رتب أموره وباشرها بحكمة وروية واختار معه أخويه الاثنين نعيم - وسويد وهما معه أولاد أب هو مقرن .

---

١ - تاريخ الطبرى .

لقد أعز الله دينه بهؤلاء الأبطال وتفانيهم وإخلاصهم . وقد أعطاهم عمر القدوة فى كلمات كأنها صواعق على العدو .

ففى أى مهمة يقول عمر مؤكداً : إن رجلاً من المسلمين أغلى عندى من عشرات الألوف من الدنانير ، وأضاف أوامره بعد حمد الله وعون الله ونصر الله ، ثم أمر بها يوفر القوة والنجاح « ولا تسير المجاهدين فى أرض وعرة ولا تمنع حقاً لأحدهم ولا تدخلهم فيها يؤذيهم . فلا المائة ألف دينار توازى ظفر مسلم »

وسار النعمان على الدرب الذى عبّده عمر ـ واجتهد وأبلى بلاءاً لا مثيل له .

ولقد ضم معه شقيقيه نعيم ـ وسويد ومعهم حذيفة بن اليمان صاحب شورى عثمان لجمع القرآن على حرف واحد ليتقى الغلط واللحن فى القرآن .

حدد البطل مكان أخويه . وأوصى بالقائد بعده وهو حذيفة . نفس التصرفات التى حفظوها عمن سبقهم سيدنا محمد ﷺ ثم الصديق ثم الفاروق عمر .

وألقى النعمان بنفسه بعد أن ضم حذيفة ، القعقاع ، مجاشع بن مسعود المغيرة الذى جاء مدداً . وكبر النعمان فكبر الجند وألقى بنفسه بعد أن ترك وصية بحذيفة بعده . واستشهد القائد الذى ألقى بنفسه وسط جموع العدو فكتم أخواه خبر موته لئلا يضعف جنده من الحزن عليه .

وجاءت الغنائم مذهلة فى كثرتها وعلو قيمتها ولكن الثمن غالٍ : أبكى عمر زماناً يصلى العشاء ويغلق بابه ثم يبكى بكاء الثكالى ، يبكى قائده ، ومن الذى يملك نفسه لينحيها عن البكاء .

بعث حذيفة بالغنائم مع السائب بن الأقرع بالخمس مع البشارة ، وأهل السائب بطلعته فأسرع عمر يسأله : ماوراءك ؟ قال : خيرا . فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان فاسترجع وبكى ووجد نصيب الفارس ٦٠٠ دينار وسمى الفتح فتح الفتوح فقد دخلت فارس نهائياً الاسلام وأصبحوا رعية إسلامية رحم الله النعمان .

وكانت الغنائم كثرة لا تتصور فوجدوا ضمنها [1] سفطين من الجواهر النفيسة أرسلا لعمر .

---

١ ـ تاريخ الأمم والملوك للخضرى صـ ١٠٦ .

جسد دانيال

عن قتادة قال : لما فتحت « السوس » وعليهم أبو موسى الأشعرى وجدوا دانيال فى إيوان .

ودانيال واحد من الأسرى . وكان بجانبه مال موضوع وكتاب فيه « من شاء أتى واستقرض منه إلى أجل - فإن أتى إلى الأجل وإلا برص - يعنى أصيب بمرض وهو البرص فيتلون جلده » .

وقد التزمه أبو موسى وقبله وقال : دانيال ورب الكعبة . فكتب أبو موسى به إلى عمر ليرى فيه الرأى فكتب عمر إلى أبى موسى بأن يكفنه ويحنطه ويصلى عليه - وينظر ماله فيجعله فى بيت مال المسلمين .

فكفنه أبو موسى فى قباطى بيض وصلى عليه ودفنه .

وقد حكى الطبرى قصة دانيال كما حكاها البلاذرى عند الكلام على فتح كور الأهواز .

وقالوا : إن أبا موسى وجد فى قلعتهم بيتاً وعليه ستر فسأل عنه فقيل له : إن هذا جسد دانيال .

وقالوا : إن الأسرى الذين كانوا فى يد بختنصر : دانيال وعزير فأما دانيال فهو الذى عبر له الرؤيا التى رآها فنزل منه بأفضل المنازل وكان قبره فى ناحية « السوس » ووجده أبو موسى فأخرجه وكفنه وصلى عليه ثم قبره .

بيعة الرضوان

بسم الله الرحمن الرحيم « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً » . كانت هذه البيعة بالحديبية وخبرها :

أن الرسول ﷺ بعد غزوة بنى المصطلق أراد أداء زيارة للكعبة وهو حق للعرب جميعاً ، فأى قبيلة أو فرد يقصد العمرة يذهب ويؤدى دون أى اعتراض .

وقد شعر ﷺ بشوق إلى بلده ومسقط رأسه بعد غيبة طالت وكان المهاجرون كذلك ، ولم يقدر الرسول مافعل المشركون من تعنتهم وتعرضهم بالظلم ومنع الركب من دخول البلد العزيز الآمن بأمن الله لها .

وأعلن النبى ﷺ للعرب من يريد اللحاق به ممن حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم وخرج هو بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب وعددهم ١٥٠٠ .

وقد ساق معه الهدى وأحرم ليعلم الناس أنه لم يقصد حرباً ، بل جاء زائراً كما يفعل أى عربى من أى قبيلة ، وبلغ ذلك قريشاً فى مكة ، فخرج جمعهم لصد النبى ﷺ ومن معه عن المسجد الحرام ودخول مكة ، فإن حاول فإنهم سيقاتلونه .

وقدموا خالد بن الوليد إلى كراع الضميم ، ووصل خبرهم هذا إلى الرسول ﷺ والمؤمنين ، أخبرهم بذلك وهم بعسفان « بين الجحفة ومكة » ووصل إليه هذا الخبر بشر بن سفيان الكعبى ، فسلك طريقاً يخرج به من ظهورهم وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة وكان دليله فيهم رجل ممن أسلم .

ولما بلغ ذلك خيل قريش التى فى مكة جرت إلى قريش تخبرهم ، فلما وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية بركت ناقته ﷺ فقال الناس : خلأت . . خلأت (أى بركت من غير علة) فقال ﷺ : ما خلأت وماهو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ثم قال : « لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها » ثم نزل هناك فقيل له : يارسول الله ليس بهذا الوادى ماء ، فأخرج ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل فى قلب من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش الماء الرواء حتى كفى جميع الجيش . وقد ذكر رواية أن الذى نزل بالسهم فى البئر : ناجية بن جندب بن عمير الأسلمى ، وهو سائق بدن الرسول ﷺ يومئذ . وقيل : إن الذى نزل إليه هو البراء بن عازب .

ثم جرت السفراء بين الرسول ﷺ وبين قريش وطال التراجع والتنازع بينهما وكان الرسول قد أحرم وساق الهدى قصداً إلى أن تعلم قريش أنه جاء زائراً ومعظماً للبيت .

وهم قد علموا بذلك ولكنهم خرجوا بجمعهم صادين للرسول ﷺ ومن معه عن البيت وهو حق لكل عربى فى كل قبيلة .

وجاء أخيراً سهيل بن عمرو العامرى فقاضاه على أن ينصرف ﷺ عامه هذا ، فإذا كان من قابل أتى معتمراً ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح حاشا السيوف فى قربها فيقيم بها ثلاثاً ويخرج على أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً ، وإن جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رد إلى الكفار . ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين ، فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ـ وكان الرسول أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا ، فقال لأصحابه : « صبرا صبراً فإن الله يجعل هذا الصلح سبباً فى ظهور دينه » . فأنس الناس إلى قوله هذا بعد معارضتهم . وكتب علىّ بأمره ﷺ : من محمد رسول الله فأبى سهيل بن عمرو ذلك فلا يكتب فى صدر الصحيفة ذلك وقالوا : لو صدقناك بذلك مادفعناك عما تريد فلابد أن تكتب : باسمك اللهم فقال لعلى وكان يكتب الصحيفة : امح ياعلى واكتب : باسمك اللهم ـ فأبى على أن يمحوا بيده محمد رسول الله ، فقال له الرسول ﷺ : اعرضه على ، فأشار إليه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وأمره أن يكتب : من محمد بن عبد الله .

وأتى أبو جندل بن سهيل بن عمرو يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسف فى قيوده فرده رسول الله ﷺ إلى ابيه فعظم ذلك على المسلمين فأخبرهم الرسول ﷺ أن الله سيجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً .

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولاً فجاء خبر إلى رسول الله ﷺ بأن أهل مكة قتلوه فدعا رسول الله حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة . فروى أنه بايعهم على الموت ، وروى أنه بايعهم ألا يفروا وهى « بيعة الرضوان » تحت الشجرة التى أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله تحتها .

وكان الرسول قد انتدب عمر ليقوم بالسفارة قبل عثمان فاعتذر عمر بعدم حصول الرضا معه وأشار بعثمان .

وأخبر الرسول بأن المبايعين لا يدخلهم الله النار وضرب رسول الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان فى البيعة كأنه ممن شهدها .

وعن الشعبى قال : أول من بايع رسول الله ﷺ يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة

فبايعناه وأخذ عمر بيده تحت الشجرة وهى شجرة الطلح غير أن جد بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره .

وعن سالم بن أبى الجعد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة فقال : لو كنا مائة ألف لكفانا - كنا ألف وخمسمائة - وفى رواية كنا خمسة عشرة مائة .

وعن عبد الله بن أبى أوفى قال : كنا أصحاب الشجرة ألفا وثلاثمائة . وكان أسلم ثمن المهاجرين .

وعن يزيد بن أبى عبيد قال : قلت لسلمة : على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية فقال : على الموت .

وعن البراء بن عازب قال : كتب على رضى الله عنه الصلح بين النبى ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ فقالوا : لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك فقال النبى ﷺ لعلى « أمحه » فقال : ما أنا بالذى أمحوه ، فمحاه النبى ﷺ بيده .

وكان فيما اشترطوه عليه : أن يدخل مكة فيقيموا فيها ثلاثاً ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح . قلت لأبى اسحاق : وما جلبان السلاح ؟ قال : القراب ومافيه .

وعن أنس أن قريشاً صالحوا النبى ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبى ﷺ لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو : أما بسم الله فما ندرى مابسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب مانعرف : بسمك اللهم . فقال : اكتب : من محمد رسول الله : فقالوا : لو علمنا أنك رسول الله لا تبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك - فقال النبى ﷺ اكتب : من محمد بن عبد الله .

عمر والحديبية

قام عمر رضى الله عنه فى صلح الحديبية بدور شاق وعنيف فى هذه الفترة الشاقة من العمل للاسلام وتحقيق عزته ومناهضته قريش فى مكة حيث :

١ ـ تحمل التعنت والشموخ الذى أتى به زعماؤهم والاستبداد بقطع الرأى بالمنع وإشاعة أنهم فى مركز القوة وأن من أسلم مع محمد لا يزال وضعهم غريباً وعجيباً إلى حد أنهم لا يستطيعون زيارة البيت كأى قبيلة من العرب .

كل ذلك والقوة التى صار إليها الاسلام ، والرسول ﷺ قادرة على تحديد الموقف لصالح الحق فى مقابلة الباطل .

ومثل عمر فى شجاعته وحماسته وجهده ووضعه منذ أسلم يصعب عليه تحمله ولذلك تردد بين الرسول ﷺ وأبى بكر يسأل فى تعجب ومغالبة النفس للصبر على تعنت الطرف الأخر : ألسنا بالمسلمين بل إنهم المسلمون ، وألسنا على الحق ؟ . . . بلى انهم على الحق متنا أوحيينا ، وأليس النبى برسول الله ؟ . . . بلى انه لكذلك . وفى الأخر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ويقطع الرسول سلسلة الأسئلة بالحزم « إنى لرسول الله ولن يضيعنى سبحانه وتعالى » .

٢ ـ ثم كان موقف المسلمين فى التباطؤ لتنفيذ فقرات الصلح مثيراً له فقد سمعوا مراراً أمر الرسول بالتحلل تمهيداً للعودة ولم تقع إجابة .

٣ - وكان منظر أبو جندل بن سهيل القائم بالصلح نيابة عن قريش مثيراً للألم حيث جاء يرسف فى قيوده الحديدية وخرج مسلمًا وتحمل المشاق حتى وصل إلى مكان

الرسول وغير طريقه ودار حيث يصل ، وقد وصل ، فتنازع عليه المسلمون وتشبث سهيل أبـوه ونادى مراراً : يامعشر المسلمين أتتركوني للمشركين لأفتن عن ديني ؟ وهدأ الرسول من تأثره وقال : إن الله سيجعل لك ولاخوانك مخرجاً ، وطيب خاطره بالوعد الجميل وبالاعتذار إليه بعد أن خرج من أسفل مكة ورمى نفسه وسط المسلمين ظانا أنه نجا منهم .

وقال أبوه « سهيل » : هذا أول ماأقاضيك عليه ، وقد تركه في مكة حبيساً لأنه أسلم وعـذب في الله ولكنـه خرج من سجنـه وتنكب الطريق حتى وصل . وقال سهيل : رده إلينـا تنفيذاً للاتفاق . وقال ﷺ : إنا لم نقطع الاتفاق بعد ولم نكتبه فقال : فوالله لا أصالحك على شيء أبداً ، وقال النبي ﷺ : فأجزه لي . يريد إنقاذه وهو وسط المسلمين والرسول بين أظهر الجميع ، ويرد الرجل الأب : ماأنا بمجيز ذلك لك قال : بلى فافعل . قال : ماأنا بفاعل . ويتدخل مكرز بن حفص ليقول : بلى قد أجزناه لك .

وقال أبو جندل رضي الله عنه : أي معشر المسلمين : أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ماقد لقيت ؟ وكان قد ذاق العذاب الشديد ألواناً في حبسه والقسوة عليه والسخرية منه . وكانت مسألته شاقة ومضنية ، وأثار منظره المسلمين . وقد بلغ الغم بعمر رضي الله عنه على أبي جندل أقصاه فتوالت أسئلته بعد أن رفض في تجبر أبوه سهيل بن عمرو أن يجيزه للرسول .

والمعاهدة لم تكتب بعد وصوت النبي يتوالى لسهيل أبيه : أجزه لي ، فهدد وأقسم ألا يصالح أبداً عمرو أبو جندل . وفي هذه اللحظات القاسية ينطلق صوت عمر وهو على الدوام عزة للاسلام ، ولم يوجه الكلام إلى سهيل ليعطيه له أن يأذن له الجماعة بالتأديب المطلوب لقريش وأهل مكة وسهيل « بلى » وقال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ ويرتب عمر على مامضى قوله : « فلم نـعطِ الدنية في ديننا » إذن قال الرسول المؤيد من ربه الموحى إليه من لدنه : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري .

وقال عمر : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به فقال نبي الله : بلى . ويرد في العبارة الآتية على عمر لأن الرسول وعدهم بدخول المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون .

وهذه المسألة أخذها المنافقون طريقة للتهوين من شأن وعود النبي ﷺ حتى قال أحدهم متندراً : وعدنا بدخول المسجد والزيارة والواحد منا لا يأمن على نفسه أن يذهب لحاجته . وفي عبارة عمر وسؤاله يستنجز وعد الرسول وتحقيقه ، وجاء الرد

بشرح الوعد ، فإنه ﷺ وعدهم ولكنه لم يحدد العام الذى سيبلغون فيه ذلك ، ولذلك أجاب ﷺ بقوله : أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ فقال عمر : لا . فقال الرسول : فإنك آتيه وطائف به . قال عمر : فأتيت أبا بكر وكرر الأسئلة التى سألها للرسول ﷺ وأجابه أبو بكر بقوله : أيها الرجل إنه رسول الله ولن يعصى الله وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، يعنى بمثل مايكون للناقة مع الراكب بمثل السرج للفرس لكنه من الجلد ، والمتخذ من الحديد أو الخشب ركاب . وحاصل المعنى الصادرة عبارته من أبى بكر لعمر : تمسك بأمر رسول الله كما يتمسك بغرز الراكب فى حالة سير الفرس .

فأكد أبو بكر فى نفس عمر وجوب التمسك بأمر الرسول ﷺ ولن تزلزله المقابلة الأولى مع أهل مكة وظلمهم وجبروتهم .

وتوجه عمر بالسؤال الأخير وهو أنه ﷺ وعدهم بزيارة البيت والطواف حول الكعبة ، وأجاب الصديق على ذلك بأنه وعدنا لكنه لم يحدد العام الذى سيبلغون فيه هذه المنزلة ويتحقق لهم هذا الأمل إن لم يكن فى هذا العام ففى العام القادم وسيكون الفتح المبين « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . والأعمال التى عملها : صام وصلى وأعتق الرقاب واستغفر ربه فى مراجعته للنبى ﷺ . وقد حدث حديثاً آخر بأنه بعد أن حقق الله للرسول وعده فى زيارة البيت والطواف حول الكعبة وبعدها دخلوا مكة والرسول فى مقدمتهم وطافوا وأتموا .

التوقف والاستشارة :

وكتبت المعاهدة وأمر الرسول المسلمين بالتحلل والعودة فسكتوا وظلوا صامتين وكرر الأمر ثلاثاً فلم يقم أحد فتوقفوا عن الإجابة لأمر الرسول الله ﷺ ، وكان عندهم رجاء بأن ينزل الله الوحى بما يرضيهم وإبطال الصلح . وقد أصابتهم الدهشة فاستسلموا للكفر لظهور قوتهم واعتقادهم أنهم قادرون على ضرب المشركين .

فدخل النبى ﷺ على أم المؤمنين أم سلمة وذكر مالقى من الناس بعدم المسارعة فى تنفيذ الأمر والتحلل والعودة ، وفى ذلك استشارها فقالت : يانبى الله أتحب ذلك ؟ أخرج ولا تكلم أحداً حتى تنحر الجزور « بدنة » وتدعو الحلاق فيحلق لك ، وقد خرج ولم يكلم أحداً منهم حتى فعل التحلل ونحر بدنة . ولما شاهدوه يفعل قاموا ونحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، فبدأ بالقدوة فأجابوا وكان ذلك دليلاً على جواز استشارة النساء والعمل بما يشيرون ، وكانت استشارة ناجحة ومفيدة . وبقى من عمل عمر فى هذه المعاهدة أنه حين رأى أبا جندل فى قيده الحديدى تألم وخلع السيف وأمسكه من المقبض وصار يقول لأبى جندل : إن دم الواحد منهم دم كلب فلا قيمة

لهم لأنهم خبث وكان يشير بذلك إلى أن يمسك أبو جندل بسيف عمر فيقطع بها رقبة أبيه سهيل بن عمرو .

لهذه المواقف الخطيرة يومها وكانت التفاصيل مثيرة لعمر على الخصوص لأن إجابات سهيل كانت بغطرسة كأنه يمسك زمام الموقف والقدوة التى تحل المشكلة مع أنهم يومها كانوا أذلة تكاد تؤكل .

ولما دعا الرسول عليا لكتابة الصلح ابتداء الرسول بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : لا أعرف ذلك بل اكتب باسمك اللهم فقال الرسول : اكتب باسمك اللهم . ولما قال اتفق محمد رسول الله مع سهيل بن عمرو فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ماردناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فرضى الرسول ﷺ .

ولما قال النبى ﷺ عن الاتفاق على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة « قهراً » ولكن ذلك من العام القادم فكتب على بأمر الرسول كل مارضى به سهيل بن عمرو ، ومع هذا فإنه كان فى حسن الظن منذ رآه الرسول مقبلاً عليه لعقد الصلح .

بقى أن أبا جندل اجتمع عليه المستضعفون الذين قدروا على الوصول إليه والهروب إلى ساحل البحر والتربص هناك لكل حملة من التجارة فيها مال لقريش هجموا عليها وأخذوا كل مافيها حتى ضجوا فى مكة وكتبوا للرسول بأن يقابلهم فى المدينة لتسلم لهم التجارات ليستريحوا من سطوهم وهجومهم ، وقد جعل الله لهم مخرجاً فكتبوا إليه ليأخذهم عنده ويريحهم من الهجوم على كل حملة تجارة وذلك من بركات النبى ونور القرآن .

وأما عمر رضى الله عنه فإنه كان يتشوق على إذن الرسول له وللجماعة بالهجوم على قريش مرة ودفعة واحدة للقضاء على الشر والظلم .

ولكن النبى يتصرف بالوحى وأمر ربه وقد اتضح أخيراً أن هذا كان مقدمة للنهاية والفتح المبين .

وكان الظلم أن يسلم الرسول إليهم من يرتد عن الاسلام ، وهذا الشرط كذلك أبطله الله لأن كل من دخل الايمان قلبه لم يقبل أن يرتد عنه ويعود إلى الضلال والكفر ، على أن من كان يتولى هذه الزعامة فى صلح الحديبية دخلوا فى الاسلام ودخل الرسول مكة وزار وطاف مع المسلمين فى عشرة آلاف حوله وقد عفا عنهم وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

أرطبون وصفرانيوس
من عهد القدس
عتاب أبى بكر
للذكرى

شاهد البطريرك أرطبون والقس صفرانيوس مافعل الروم فى المدينة وحصارها مدة بعد هزيمة الروم على يد خالد بن الوليد وابى عبيده .

وقد علما بأن أمير المؤمنين أمر رجاله بأن يوافوه فى بلد تسمى الجابيه وهى قريبة منهم كما علما بانهزام الروم فانسحب البطريرك ارطبون الى مصر خفية فى حراسة الجند فطلب بنفسه تسليم المدينة للمسلمين بشرط أن يحضر أمير المؤمنين بنفسه لاستلامها ويعهد منه هو .

وقد طلب ذلك لما شاهده من حسن معاملة المسلمين بالنسبة للروم ولم يجد أمير المؤمنين صعوبة فى ذلك نظراً لقرب المدينة من مكان عمر حين الطلب ، فالجابية قريبة من القدس وقد أمر عمر رجاله بأن يقابلوه فى الجابيه مما يسهل حضوره لاستلام القدس واعطاء العهد العمرى بالوفاء بما يعهده عمر وقد وافق أمير المؤمنين على ذلك وحضر فعلاً ، وكان عهده للقدس عهد الوفاء عهداً سجله التاريخ لعمر وللاسلام بروحه الكريمة .

الأريسيين :

« قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وقد وجهت هذه الرسالة بهذا النص الى المقوقس وهو عظيم القبط فى مصر .

الإجابة

وقد حكت المصادر الردود التى أجاب بها هؤلاء على كتاب النبى ﷺ فقيل إن هرقل قابل الوفد الذى حمل له الرسالة بقبول حسن وودعهم بأدب واحترام .

ومثله المقوقس عظيم القبط فى مصر فقد رد المبعوث إليه بأدب وهدية إلى النبى ﷺ وهى مارية وأختها وعلج معهما وهو مابور ـ فأخذ مارية لنفسه فولدت له إبراهيم وأعطى أختها لحسان .

ورد نجاشى الحبشه رداً جميلاً مؤدباً وكتب بذلك كتاباً أرسله إلى النبى ﷺ . أما أمير البحرين فقد أجاب باعتناقه الاسلام وقد تصرف كسرى تصرفاً سخيفاً فلم يحترم الرسل ومزق الكتاب وطرد من حملوه اليه .

وقد ظلت المعرفه بالاسلام فى ربوع هذه البلاد حتى اتسعت الفتوحات الاسلامية وامتدت الدوله فى عهد عمر رضى الله عنه فدخلت هذه الملايين فى دين الله افواجاً .

مفاوضات تسليم القدس

ويتوالى عدل عمر على الرعيه عموماً وعلى أهل الكتاب على الخصوص بعدالة الاسلام فى امتداد الفتوح .

وحاصر عمرو بن العاص ايلياء « بيت المقدس » وكان فيها ارطبون « بطريك القدس » والروم قد حصنوا بالجنود تحصيناً ، وقد طال التحصين للمدينة حيث مكث أشهر لينتهى أمر الحصار ويتحقق الفتح . وتدخل مصر نهائياً فى مجارى النور الاسلامى وهداية القرآن وللاعتزاز بنفس المسلمين فى التاريخ .

ثم كتب عمر لعمرو : « إنى أعالج حرباً كنوداً صدوماً وبلاداً ـ ادخرت لك » وقد أمد عمر المجاهدين مرة فى إثر أخرى .

ولما وجد عمر فتح القدس متعسراً خرج عمر من المدينة يصحبه خير مدد ونزل

الجابيه بعد أن كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بها يوم حدده بينه وبين من كتب إليهم على أن يستخلفوا على أعمالهم ولما عرفوا مقدم أمير المؤمنين ساروا إليه ، وعلم ارطبون وصفرانيوس : الأول بطريرك المسيحيين والثانى أسقف المدينة « إيلياء القدس » .

وقد علم ارطبون وصفرانيوس ماحل بالروم على يد أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد من المصائب والهزيمة ، وقد رأوا أن المدينة لن تستطيع المقاومة طويلاً فانسحب ارطبون مستخفياً فى قوة من الجند إلى مصر وترك القيادة للأسقف فاطمأن ارطبون البطريرك العجوز إلى نجاته وتولى مفاوضة المسلمين لتسليم المدينة لهم ، وهكذا آل أمر القدس ولما علم قدوم عمر بنفسه ووجوده بالجابيه فاشترط أن يأتى عمر بنفسه ليكتب عهد القدس عهداً عمرياً .

ولم يكن بين القدس وعمر فى الجابيه ما تتعذر معه إجابة هذا الطلب المقدم من البطريرك ارطبون وصفرانيوس الأسقف .

وعادت المدينة فأرسلت وفداً منها الى الجابيه يستأمن لها ويتم الصلح بها مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد مفاوضات فحضر عمر وكتب العهد المحفوظ كما سجله الطبرى .

عهد عمر للقدس :

وها هو كتاب أمانة القدس كتاب عهد عمر بأمانة بيت المقدس .

من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم : «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين « أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقصها منتقص منها شيئاً ولا من حيزهم ولا من صلوبهم ولا من شىء ولا من حيزها ولا يضار أحد من صليبهم ولا يسكنها أحد من أموالهم ولا بإليائهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء « بيت المقدس » أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن أقام منهم فهو آمن على نفسه وماله مع الروم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزيه .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم فهو آمن وعليه مثل ما

على أهل إيلياء من الجزيه ، ومن سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله وأنه لا يخرج منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ما أعطوا الذى عليهم من الجزيه .

ثم ختم الكتاب عمر بتوقيعه ثم شهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاويه بن أبى سفيان .

الشهود :

خالد ، عبد الرحمن بن عوف ـ عمرو بن العاص ـ معاوية بن أبى سفيان .

ومن رجوعه إلى الحق

قال الله تعالى « وإن أردتم استبدال زوج [1] مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً »

قال القرطبى [2]

إن الآية دليل على جواز المغالاة فى المهور لأن الله تعالى لايمثل إلا بمباح .

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا - لا تغالوا فى المهور صدقات النساء فإنها لوكانت مكرمة فى الدنيا - أوتقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ : ماأصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتى عشرة أوقية فقامت إليه امرأة فقالت : ياعمر يعطينا الله وتحرمنا ؟ أليس الله سبحانه وتعالى يقول « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً »؟

قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وفى زواية أخرى : امرأة أصابت ورجل أخطأ والله المستعان فأطرق عمر ثم قال كل الناس أفقه منك ياعمر وترك الإنكار وأخرجه أبو حاتم البستى فى صحيح مسنده عن أبى العجفاء السلمى قال : خطب عمر الناس فذكره إلى قوله اثنتى عشرة أوقية ولم يذكر - فقامت امرأة إلى آخره .

---

١ - سورة النساء اية ٧١ .

٢ - تفسير آيات الأحكام جـ ٥ ص ٩٩

وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى الجعفاء وزاد بعد قوله أوقية وأن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة فى نفسه ويقول كلفت إليك علقة القربة أوعرق القربة وكنت رجلاً عربياً مولداً ماأدرى ماعلق القربة أو عرق القربة قال الجوهرى . وعلق القربة لغة فى عرق القربة قال غيره : ويقال علق القربة عصامها الذى تعلق به يقول : كلفت إليك حتى عصام القربة ـ وعرق القربة ماؤها يقول : جشمت إليك حتى سافرت واحتجت إلى عرق القربة وهو ماؤها فى السفر .

ويقال : بل عرق القربة أن يقول : نصبت لك وتكلفت حتى عرقت عرق القربة وهو سيلانها .

وقيل : إنهم كانوا يتزودون الماء فيعلقونه على الإبل يتناوبونه فيشق على الظهر ففسر به اللفظان : العلق والعرق .

وقال قوم : لا تعطى الآية جواز المغالاة بالمهور لأن التمثيل بالقنطار إنما هو على جهة المبالغة كأنه قال : وآتيتم هذا القدر العظيم الذى لا يؤتيه أحد وهذا كقوله ﷺ « من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

ومعلوم أنه لا يكون مسجد كمفحص قطاة وقد قال ﷺ لأبن أبى حدرد ـ وقد جاء يستعينه فى مهره ـ فسأله عنه فقال : مائتين فغضب رسول الله ﷺ وقال : كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة أو الجبل فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة فى المهور ـ وهذا لا يلزم ـ وإنكار النبى ﷺ على هذا الرجل المتزوج ليس إنكارا لأجل المغالاة والإكثار فى المهور وإنما الإنكار لأنه كان فقيراً فى تلك الحالة فأحوج نفسه إلى الاستعانة والسؤال وهذا مكروه باتفاق .

وقد أصدق عمر أم كلثوم بنت على من فاطمة رضى الله عنها أربعين ألف درهم .

وروى أبو داود عن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال لرجل : أترضى أن أزوجك فلانة ؟ قال : نعم وقال للمرأة : أترضين أن أزوجك فلاناً ؟ قالت : نعم فزوج أحدهما من صاحبه فدخل بها الرجل ولم يفرض لها صداقاً ولم يعطها شيئاً ـ وكان ممن شهد الحديبية وله سهم بخيبر ـ فلما حضرته الوفاة قال : إن رسول الله ﷺ زوجنى فلانة ولم أفرض لها صداقاً ولم أعطها شيئاً وإنى أشهدكم أنى قد أعطيتها من صداقها سهمى بخيبر فأخذت سهمها فباعته بمائة ألف .

وقد أجمع العلماء على ألا تحديد لأكثر الصداق لقوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطاراً » واختلفوا فى أقله . فى قوله تعالى « أن تبتغوا بأموالكم » وتحديد القنطار فى آية آل عمران » .

وقوله تعالى « فلا تأخذوا منه شيئاً » قال بكر بن عبد الله المزنى لا يأخذ الزوج من المختلعة شيئاً لقول الله تعالى « فلا تأخذوا منه شيئاً » وجعلها ناسخة لآية البقرة .

وقال ابن زيد وغيره : هي منسوخة بقوله تعالى فى سورة البقرة « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » والصحيح أن هذه الآيات محكمة وليس فيها ناسخ ولا منسوخ وكلها يبنى بعضها على بعض .

قال الطبرى : هى محكمة ولا معنى لقول بكر إن أرادات هى العطاء فقد جوز النبى ﷺ لثابت ان يأخذ من زوجته ماساق إليها .

قوله تعالى « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » تعليل لمنع الأخذ مع الخلوة .

وقال بعضهم : الإفضاء إذا كان معها فى لحاف واحد جامع أو لم يجامع حكاه الهروى وهو قول الكلبى .

وقال الفراء : الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وإن لم يجامعها .

وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وغيرهم : الإفضاء فى هذه الآية : الجماع قال ابن عباس : ولكن الله كريم يكنى وأصل الإفضاء فى اللغة المخالطة .

ويقال للشىء المختلط فضا قال الشاعر :

فقلت لها ياعمتى لك ناقتى وتمرٌ فضا فى عيبتى وزبيب .

ويقال : القوم فضا أى مختلطون لا أمير عليهم .

وعلى أن معنى أفضى : خلا وإن لم يكن جامع هل يتقرر المهر بوجود الخلوة أم لا ؟

اختلف علماؤنا فى ذلك على أربعة أقوال :

يستقر بمجرد الخلوة . لا يستقر إلا بالوطء ـ يستقر بالخلوة فى بيت الإهداء ـ التفرقة بين بيته وبيتها .

والصحيح استقراره بالخلوة مطلقاً وبه قال أبو حنيفة وأصحابه قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة ـ دخل بها أو لم يدخل بها كما رواه الدارقطنى عن ثوبان .

قال : قال رسول الله ﷺ من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق .

وقال عمر : إذا اغلق بابا وأرخى ستراً ورأى عورة فقد وجب الصداق .

وقال مالك إذا طال مكثه معها مثل السنة ونحوها واتفقا على ألا مسيس وطلبت المهر كله كان لها .

وقال الشافعى : لا عدة عليها ولها نصف المهر .

وأما قوله تعالى : « وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » ففيه أقوال فقيل هو قوله ﷺ « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »

وقال عكرمة والربيع : « قوله تعالى فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » قال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدى الثالث عقدة النكاح قول الرجل نكحت وملكت النكاح قاله مجاهد وابن زيد .

وقال قوم : الميثاق الغليظ : الولد والله أعلم .

القوى الأمين

روى ابن الجوزى أن الإمام عليا رضى الله تعالى عنه رأى عمر يوماً فقال : ياأمير المؤمنين اين تذهب ؟ فقال : بعير ند من إبل الصدقة أطلبه .

قال علي : لقد أتعبت من بعد فقال عمر : فوالذى بعث محمداً بالحق والنبوة لو أن عنزا ذهبت بشاطىء الفرات لأخذ عمر بها يوم القيامة .

وبينما عثمان بن عفان فى مال له بالعالية فى يوم صائف إذ رأى رجلاً يسوق بكرين وعلى الأرض مثل الفراش من الحر فقال عثمان : ماعلى هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد ـ ثم يروح . ثم دنا الرجل فقال لمولاه : أنظر من هذا ؟

فنظر فإذا عمر بن الخطاب فقال : هذا أمير المؤمنين فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا لفح السموم فأعاد رأسه حتى إذا حاذاة قال : ماأخرجك فى هذه الساعة ؟ قال : بكران من إبل الصدقة تخلفا وقد مضى بإبل الصدقة فأردت أن ألحقهما الحمى وخشيت أن يضيعا فيسألنى الله عنهما .

فقال عثمان : هلم إلى الظل والماء وتكفيك فروض عمر ومضى .

قال عثمان : من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين فلينظر إلى هذا . وعاد إلينا فألقى نفسه . « رواه ابن عساكر » .

وقال على لعثمان : سمعت قول ابنة شعيب فى كتاب الله تعالى « ياابت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

فأشار إلى عمر وقال : هذا هو القوى الامين .

وكان على وعثمان وعمر ثلاثتهم فى مكان إبل الصدقة ، وقد جلس عثمان فى الظل يكتب وقام علىّ على رأسه يملى عليه مايقول عمر وهو قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر وعليه بردتان سوداوان مؤتزر بواحدة والأخرى على رأسه حين كان يتفقد إبل الصدقة ـ يكتب الألوان والأسنان .

وقد جرى حديث على وعثمان وهو قائم بهذا العمل .

ولم ينقطع عمر عن أداء هذه الخدمات حتى تقدمت به السن وشعر بالشعف واسترجع مايقوم به من الجهود والخدمات المتنوعة التى عهدها الناس به وتعودوا أن يجدوا كل شىء من أميرهم .

أن عمر دخل الإسلام بدعاء مبارك تحرك به لسان محمد ﷺ فقال : اللهم أعز الاسلام بأحد رجلين ـ والرواية الثانية تعيين عمر بنفسه لنصرة الاسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم
« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً [1]»

وقـولـه تعـالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل الله تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن ، فلاحلال إلا ماأحله الله ، ولا حرام إلا ماحرمه ، ولا دين إلا ماشرعه ، وكل شىء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى . « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً » أى صدقاً فى الإخبار وعدلاً فى الأوامر والنواهى .

فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) أى فارضوه أنتم لأنفسكم . فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله « اليوم أكملت لكم دينكم » وهو الاسلام . أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله تعالى فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله تعالى فلا يسخطه أبداً .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٧ .

وقال أسباط عن السدى : نزلت هذه الآية يوم عرفه ، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام . ورجع رسول الله ﷺ فمات .

قالت أسماء بن عميس : حججت مع رسول الله هذه الحجة فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل فمال رسول الله على الراحلة ، فلم تطق الراحلة من ثقل ماعليها من القرآن فبركت فأتيته فسجيت عليه برداً كان علىّ .

وقال ابن جرير وغير واحد : مات رسول الله بعد يوم عرفة بواحد وثمانين يوماً . رواهما ابن جرير ثم قال : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبى « ما يبكيك » . قال : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذ أكمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص فقال : « صدقت » . ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت « إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء » .

وقال الامام أحمد : حدثنا جعفر بن عونْ حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : قولـه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » فقال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله والساعة التى نزلت فيها على رسول الله : عشية عرفة فى يوم جمعة .

ورواه البخارى عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به . ورواه أيضاً مسلم والترمذى والنسائى أيضاً من طرق عن قيس بن مسلم به . ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثورى عن قيس عن طارق قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤون آية لونزلت فينا لا تخذناها عيداً . فقال عمر : إنى لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله حيث أنزلت : يوم عرفه وأنا والله بعرفة . قال سفيان : وأشك . كان يوم الجمعة أم لا (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية . وشك سفيان رحمه الله إن كان فى الرواية فهو تورع ، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا . وإن كان شك فى كون الوقوف فى حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ماأخاله يصدر عن الثورى رحمه الله ، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازى والسير ولا من الفقهاء .

وقد وردت فى ذلك أحاديث متواترة لا شك فى صحتها والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا رجاء بن أبى

سلمة أخبرنا عبادة بن نسى أخبرنا أميرنا إسحاق ـ قال أبو جعفر بن جرير هو اسحق بن حرشه ـ عن قبيصة يعنى ابن أبى ذئيب قال : قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه . فقال عمر : أى آية ياكعب ؟ فقال : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) فقال عمر : قد علمت اليوم الذى أنزلت ، والمكان الذى أنزلت فيه . نزلت فى يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيداً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو بكر حدثنا قبيصة حدثنا حماد بن سلمة عن عمار هو مولى بنى هاشم أن ابن عباس قرأ (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) فقال يهودى : لونزلت هذه الآية علينا لا تخذنا يومها عيداً . فقال ابن عباس : فإنها نزلت فى يوم عيدبن اثنين يوم عيد ويوم جمعة .

وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن كامل حدثنا موسى بن هارون حدثنا يحيى الحمانى حدثنا قيس بن الربيع عن اسماعيل بن سليمان عن أبى عمر البزار عن أبى حنيفة عن على قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم) . وقال ابن جرير حدثنا أبو عامر اسماعيل ابن عمر والسكونى حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عباس حدثنا عمرو بن قيس السكونى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) حتى ختمها فقال : نزلت فى يوم عرفة فى يوم جمعة .

وروى ابن مردويه من طريق محمد بن اسحاق عن عمرو بن موسى بن دحية عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نزلت هذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) يوم عرفة ورسول الله واقف على الموقف .

فأما مارواه ابن جرير وابن مردويه والطبرانى من طريق ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن حنش بن عبد الله الصفانى عن ابن عباس قال : ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين وتوفى يوم الاثنين ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين . هذا لفظ أحمد ولم يذكر نزّول المائدة يوم الاثنين فالله أعلم . ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين كما تقدم . فاشتبه على الراوى والله أعلم .

وقال ابن جرير : وقد قيل : ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس . ثم روى من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) يقول : ليس بيوم معلوم عند الناس . قال : وقد قيل : إنها نزلت على رسول الله فى مسيره إلى حجة

الوداع . ثم رواه من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قلت : وقد روى ابن مردويه من طريق أبى هارون، العبدى عن أبى سعيد الخدرى أنها نزلت على رسول الله يوم غدير خم حين قال، لعلى « من كنت مولاه فعلى مولاه » ثم رواه عن أبى هريرة وفيه أنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة . يعنى بعد مرجعه عليه السلام من حجة الوداع ولا يصح لا هذا ولا هذا ، بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة . كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وأول ملوك الاسلام معاوية بن أبى سفيان وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وسمرة بن جندب رضى الله عنه . وأرسله الشعبى وقتادة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء .

مقدمة للأذان

استقر فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم أن الجماعة فى أداء الصلوات من شعائر الصلاة وأن لها فضلاً على صلاة المنفرد وحده بسبع وعشرين درجة .

وهذا فضلاً عما تؤديه الجماعة من هيبة الاجتماع فى نفوس الأعداء ، والاعتزاز فى قلوب المسلمين المجتمعين وغيرهم .

ولكن الجماعة على النطاق الواسع لا تكون إلا بالاعلام للمصلين بأن وقت أى صلاة قد حان .

ولا يخفى على أحد أن الجماعة فى زمان الوحى كانت بإمامة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وهذا فى ذاته مجد عظيم ومقام كريم .

ولقد كان المسجد النبوى فى أول لحظات تشريف النبى ﷺ المدينة المنورة محدوداً فى العدد الذى كان يؤدى الصلوات مع النبى ﷺ حيث العدد المسلم كان فى نطاق من أجاب دعوة الله ورسوله إلى الدين . ورغم ذلك فإن كل من أسلم لم يكن مستطيعاً أداء الصلوات فى مسجد النبى والإئتمام به لأن الكثير كان يسعى على الأرزاق ويشغلهم الصفق فى الأسواق . وكان يرسل أحدهم فى بعض المهام .

والجماعة تكون أكثر ـ ويمثلوا الهيبة بالكثرة ـ وكان أحدهم ربما لا يجد مسكناً فى قلب المدينة فيسكن العوالى ممايبعدهم عن المسجد النبوى .

ولكن ما أن يتيسر لأحدهم الوجود بجوار النبى ﷺ إلا تمسك بذلك أشد التمسك .

ثم إن كبار المهاجرين كانت منازلهم بين ذلك وفى أطرافها ، حتى إن عمر كان يتناوب مع أحد الأنصار ليعلمه بما نزل من الوحى ، وبما جد عند رسول الله ﷺ من أحوال ، وبمن ضاف المدينة فى وقت عدم وجوده بجوار الحجرات .

وعند انتشار خبر وفاة الرسول ﷺ كان أبو بكر فى بيته بأطراف المدينة ـ وقد أسرع بالحضور عند انتشار الخبر .

لذلك كله فإن الرسول عقد مع الصحابة اجتماعاً هاماً للتشاور فى الوسيلة التى يسمع بها حضور الصلاة جماعة وما يصلح للإعلام بوقت الصلاة لأكبر عدد من الصحابة :

فأشار أحدهم بإشعال النار ليبصرها المسلمون فيعلم كل أحد الوقت برؤيته بها . فرفض النبى ﷺ النار لشبه المجوس الذين كانوا يعبدونها من دون الله .

واقترح أحدهم اتخاذ القرن فرفض النبى ﷺ لأنه يشبه باليهود وهو يريد وسيلة مستقلة لا تشبه المسلمين بأى فريق فى أهم أمور العبادة وهو الصلاة التى تكون مناجاة العبد لربه تضرعاً وخشية .

فذكر أحدهم الناقوس وهو المعروف « بالجرس » فرفضه الرسول ﷺ لمشابهة النصارى .

وقد انفض الجمع دون الاتفاق على أمر معين يتخذه المسلمون للإعلام بوقت الصلاة . وهى مناجاة بين العبد والرب خمس مرات فى اليوم والليلة . تحسن بإحسان الوسيلة إليها ، وتقبح أى وسيلة تشبه المسلمين بمن كان قبلنا .

الوحى والأذان

والمعروف على لسان نبى الله صلوات الله وتسليماته عليه أن الرؤية الصادقة الصالحة فى النوم وهى جزء من ستة واربعين من الوحى .

وتوجه كل واحد إلى بيته وباتوا مشغولين بذلك ليلتهم .

وعبد الله بن زيد كان واحداً ممن حضر مجلس الشورى فى الوسيلة التى يحصل بها الاعلام بوقت الصلاة .

وقد أراه الله فى ليلته الأذان والإقامة وهو نائم .

فقال النبى ﷺ « رؤيا حق » وكان قوله ﷺ هذه الجملة إقراراً للأذان وللإقامة أيضاً .

وهذا فى الظاهر تشريع للأحكام لغاية عند الشارع وهى تحقيق مصالح العباد ، والاهتـداء إلى الأذان والإقامة من أعظم المصالح فى الدنيا والعقبى . وإن للأذان والاقامة فضلاً عظيًا تبينه الأحاديث التى وردت فى فضل الأذان والإقامة عن الشارع من الثواب العظيم ـ والشهادة لمن يقوم بالأذان فى قلب كل من يسمع المؤذن يؤذن ـ حتى إن الشيطان حين سماعه المؤذن يبتعد بعيداً عن مكان المؤذن ضنا بالشهادة لمن يقوم بهذه الشعيرة من شعائر الاسلام . والسماع ملزم بجعل الشارع له شهادة مع قوله مثل قول المؤذن . وفى عبارة الأذان علم بأشرف معلوم . فهو تكبيرات لله وشهادة بالتوحيد (الله أكبر الله أكبر ثم أشهد أن لا إله إلا الله) .

ثم الشهادة بسيدنا محمد بأنه الرسول العظيم الذى حمل أعظم أمانة بالاسلام . وهو تصديق برسالته وبصدقه فى كل ما أخبر به عن ربه .

ثم تردد النداء بحى على الصلاة : أقبلوا على الصلاة لربكم ، وأن دعوة المؤذن الناس بالإقبال على الصلاة مفتاح للفلاح وانفتاح على تسجيل لمن كبر ربه وشهد له بالوحدانية فأسلم وآمن وهتف منادياً إلى الصلاة ومؤكداً لنيل الفلاح له ولمن سمعه وقال معه مثل قوله .

ثم بالتكبير فى آخرة كما بدأ الاذان بالله أكبر فهو يختمه بالله أكبر ومؤكداً بشهادة التوحيد : لا إله إلا الله .

وماذا فى حديث الأذان

إن الشارع الحكيم جعل افتتاح الصلاة بالله أكبر والانفتاح لها بالأذان بالله أكبر وهى مسماة بتكبيرة الاحرام . يعنى التكبيرة التى قطعت التفكير فى الدنيا وحرمت عليه حتى التكلم بكلام الناس ، لأنه مقبل على الله مسارع فى إجابة الدعوة إلى الله ، مبشراً الدنيا بفلاح المنادى بالصلاة أى فلاح الداعى إلى ربهوالمدعو لربه .

وفى الصلاة والنداء إليها إلقاء للحياة خلف الظهر والاستحضار أمام ربه للمثول بين يدى ربه مناجاة بدعاء ـ ودعاء بالفلاح للقائل والمقول له ولسامع الأذان والمؤذن .

فما يسمع صوت المؤذن من إنس وجن إلا شهد للمؤذن بما أذن به أى أنه قال : الله أكبر وكررها . وشهد بالوحدانية وأكدها . وشهد بصدق الرسول بأنه هو رسول أرسله الله بالدين القيم وختم به الأنبياء والمرسلين ـ ومع هذا فإن نبى الله صادق فى كل ماجاء به عن ربه وكل ماحدث به عن ربه .

وقد قال فى حجة الوداع وعلى جبل عرفات أثناء حجه « اللهم قد بلغت اللهم فاشهد » وطلب من أمته وهم على عرفات فى الموقف الهام العام : إنكم ستسألون عنى فماذا أنتم قائلون . وأشار إلى مايطلب منهم بقوله : اللهم قد بلغت وأشهد ربه على شهادتهم . فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى كل حال « وعشيا وحين تظهرون » .

وإن للاجتهاد مدخلاً يعنى فى الشريعة - وأن الله تعالى جعل التيسير أصلاً أصيلاً فى شرع الله .

وأن لـرفض الرسول وسيلة النار ، والقرن ، والجرس حكمة وهى وجوب مخالفة أقوام تمادوا فى ضلالهم ، مخالفتهم فى شعائر الدين . هذه المخالفة فى هذا الموطن مطلوبة .

ويدل على أن غير النبى قد يطلعه الله على مراده فى المنام أو بطريق النفث فى الروع على مراد الحق - ولكن لا يكلف الله الناس به . ولا تنقطع الشبهة حتى يقرره الرسول .

والنفث هو النفخ والمراد الإلقاء . والروع هو القلب .

الأذان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

قال الكلبي : كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قد قاموا - لا قاموا - وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا فى حق الأذان : لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لك صياح العير فما أقبحه من صوت .

وقيل : إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون تجهيلاً لأهلها وتنفيراً للناس عنها وعن الداعى إليها .

وقيل : إنهم كانوا يرون المنادى بها بمنزلة اللاعب الهازىء بفعلها جهلاً منهم بمنزلتها . فنزلت هذه الآية . ونزل قول الله تعالى « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً » . والنداء معناه : الدعاء برفع الصوت . وقد يضم مثل الدعاء والرغاء ، وناداه مناداة ونداءاً أى صاح به .

الأذان كما رواه مسلم

عن عبد الله بن عمر أنه قال : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيفتحون الصلاة وليس ينادى بها أحد . فتكلموا يوماً فى ذلك فقال بعضهم : اتخذوا

ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : اتخذوا قرناً مثل قرن اليهود فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : قم يابلال فنادى بالصلاة .

كيفيات الأذان

وقد جاءت فى كيفيات الأذان الروايات الآتية :-

عن أنس قال : أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة .

وجاء عن خالد الحذاء بإسناده : لما كثر الناس ذكروا أن يعلموا بمثل ماحدث الثقفى ، غير أنه قال : أن نوروا ناراً .

تعليم الرسول ﷺ لأبى محذورة

عن أبى محذورة أن النبى ﷺ علمه هذا الأذان : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة . حى على الصلاة . حى على الفلاح . حى على الفلاح .

وزاد إسحاق : الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله . فكرر كل جملة مرتين . وهو معنى : يشفع الأذان أى يذكره شفعاً مرتين .

وقد أكمل مسلم مباحث الأذان .

فذكر استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد . ثم ذكر أنه ﷺ اتخذ بلالاً ، وعبد الله بن أم كلثوم . بلال بصير ، وابن أم كلثوم كفيف . حدث بذلك القاسم بن محمد عن عمته السيدة عائشة رضى الله عنها .

وأخذ من هذا جواز أذان الأعمى إذا كان معه بصير . كما كان بلال وابن أم كلثوم وكان الأذان حينذاك علامة على أن من يؤذن للصلاة لا تجوز الإغارة عليه .

فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع للأذان . فإن سمعه أمسك عن الإغارة ، يعنى كف عن الهجوم على من أذنوا للصلاة ، فإن لم يسمع أذاناً فى الفجر أغار . وقد سمع رجلاً يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ : على الفطرة . ثم قال المنادى : اشهد أن لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ خرجت من النار . فنظروا فإذا هو راعى معزى ؟ .

ومن قال مثل قول المؤذن إذا سمعه وصلى على النبى ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة .

فقد جاء بذلك حديث أبى سعيد الخدرى فقال : إن رسول الله قال : إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول ثم صلوا علىّ فإن من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها

عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، فأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة .

ومن ثواب الأذان

١ ـ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله قال : أشهد أن لا إله إلا الله . ثم قال : أشهد أن محمداً رسول الله قال : أشهد أن محمداً رسول الله . ثم قال : حى على الصلاة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : حى على الفلاح قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : الله أكبر قال : الله أكبر ثم قال : لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة .

٢ ـ وعن سعد بن أبى وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قال حين يسمع المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولاً وبالاسلام ديناً غفر له ذنبه .

٣ ـ وعن جابر قال : سمعت النبى ﷺ يقول : إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء .

قال سليمان : سألته عن الروحاء فقال : هى من المدينة ست وثلاثون ميلاً .

٤ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن الشيطان إذا سمع الأذان بالصلاة أحال له خراط حتى لا يسمع صوته . فإذا سكت المؤذن رجع فوسوس . فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته . فإذا سكت رجع فوسوس .

وعنه أيضاً : إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله حصاص « شدة » الضراط لثقل الأذان عليه .

ومن فضل الأذان

فى فضل الأذان وثوابه قال أبو سعيد الخدرى لأحد المسلمين : إنى أراك تحب : الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد لك يوم القيامة . وقد أكد أبو سعيد ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ .

الأذان فى أول الوقت

عن جابر بن سمرة قال : كان بلال يؤذن إذا زالت الشمس لا يخرم [1] ولا يقيم

---

١ ـ معنى لا يخرم : لا يترك من كلماته شيئاً .

حتى يخرج النبى ﷺ . فإذا خرج أقام حين يراه . رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

وينتظر خروج النبى ﷺ : فإذا خرج أقام الصلاة عند رؤيته له .

التقديم على أول الوقت فى الفجر

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يمنع أحدكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن بليل أو ينادى بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم » .

والقائم هو المتهجد إلى راحته ليقوم إلى صلاة الصبح نشيطاً أو ليتسحر إن كان له حاجة إلى الصيام .

يوقظ نائمكم يعنى ليتأهب لصلاة الصبح بالغسل أو الوضوء .

فالحديث يدل على جواز الأذان قبل الوقت فى صلاة الفجر خاصة . قال بذلك الجمهور .

وقال أبو حنيفة بخلاف ذلك محتجاً بحديث ابن عمر : أن بلالاً أذن قبل طلوع الفجر فأمره النبى ﷺ بأن يرجع فينادى : ألا إن العبد نام ، ولذلك أولوا حديث الباب كان حديث النداء بغير ألفاظ الأذان ، وإنما كان تذكيراً كما يقع للناس اليوم .

والحكمة فى اختصاص الفجر من بين سائر الصلوات ماورد من الترتيب فى الصلاة أول الوقت . والصبح غالباً يأتى عقب النوم .

التثويب

جاء المؤذن لعمر بن الخطاب يؤذنه فى صلاة الصبح فوجده نائماً فقال المؤذن : الصلاة خير من النوم فأمر عمر بجعلها فى صلاة الصبح أى فى أذان الفجر [1] .

التغنى فى الأذان واللحن فيه

عن يحيى البكاء قال : رأيت ابن عمر يقول لرجل : إنى لأبغضك فى الله ثم قال : إنه يتغنى فى أذانه .

وهذا يدل على أن التغنى بالأذان مكروه ـ ويؤكد ذلك أن عمر بن عبد العزيز هدد مؤذناً بعزله عن الأذان لتغنيه فى الأذان .

وروى عن البخارى أن مؤذناً أذن فطرب فى أذانه فقال عمر بن عبد العزيز : أذن أذاناً مسمحاً وإلا فاعتزلنا . معناه : اترك منصب الأذان . ومعنى مسمحاً .

---

١ ـ الموطأ ص ٥٥ .

التراويح

قال الفقهاء : صلاة التراويح سنة عين مؤكدة للرجال والنساء . ولهذا قالوا : تسن فيها الجماعة عيناً .

وقد اثبت سنيتها جماعة بفعل النبى ﷺ .

وروى الشيخان : أنه ﷺ خرج من جوف الليل ليالى شهر رمضان وهى ثلاث متفرقة : ليلة الثالث ـ والخامس ـ والسابع والعشرين . وصلى فى المسجد وصلى الناس بصلاته .

وكان يصلى بهم ثمان ركعات ـ ثم يكملون باقيها فى بيوتهم . فكان يسمع لهم أزيز كأزيز النحل .

وقد ظل فريق من الصحابة فى المسجد ينتظرون قيام رسول الله ﷺ ليصلوا معه بصلاته لاعتقادهم أن ذلك خير .

ولكن الرسول ﷺ امتنع عنهم ولم يخرج إليهم .

وقد بين السبب فى عدم خروجه إليهم ليصلى بهم فيما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ لم يخرج فى الليلة الثالثة . فلما أصبح قال : « قد رأيت الذى . . . فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا خشية أن تفرض عليكم » .

وزاد الطحاوى : ولو كتبت عليكم ماقمتم فصلوا أيها الناس فى بيوتكم فإن أفضل صلاة الرجل فى بيته إلا المكتوبة .

وهذا الحديث : يدل على أن العلة فى امتناع الرسول ﷺ عن إمامتهم فى الليلة الثالثة

هى خشيته من أن تفرض عليهم ويتحتم عليهم فعلها كل ليلة مع احتمال أن يأتى زمان يتهاون الناس فيها فيتركونها ويعجزوا عن الاتيان بها . وفى ذلك ضياع المفروض وهو يؤدى إلى الحرج والوقوع فى مخالفة أمر الله تعالى .

وقد فعلها ﷺ فى الليلتين السابقتين يدل على جواز صلاتها بجماعة . لأنه ﷺ صلى بهم إماماً فى الليتين السابقتين .

وماورد من أنهم كانوا يكملونها فى البيوت يدل على أنها لا تقتصر على ثمان ركعات ، لأن مايصلونه فى البيوت كان بعد صلاتهم فى المسجد ثمان ركعات .

فلما انقضى زمان الوحى بلحاق النبى بالرفيق الأعلى أمن الناس جانب الفرضية ، لأن فرضية العبادات لا تكون إلا بوحى من القرآن أو السنة وهما لا يصدران إلا عن الرسول ﷺ .

فراى عمر أن المسلمين يصلون فى المسجد أوزاعاً وفرادى لا يجتمعون عليها ثم رأى أن السبب الذى من أجله امتنع الرسول ﷺ عن إمامتهم فيها فى المسجد وهو خوفه أن تفرض عليهم قد انتهى بوفاته عليه السلام .

ثم رأى أنهم لواستمروا على ماكانوا عليه ربما جاء زمان يتهاونون فى قيام شهر رمضان . ورأى ان اجتماعهم عليها فى المسجد مظهر جليل يوحد صفوف المسلمين ويعظم هيبتهم ويزيد العبادة بركة مع مايوحى إليه من زيادة الاحتفال بالشهر الكريم فقال رضى الله عنه : والله إنى لأرانى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل .

ثم أمر أبى بن كعب أن يصلى بهم . فلما رآهم فى الليلة التالية قال : بدعة ونعمت البدعة هذه والتى تنامون عنها أفضل من التى تقومون .

ولم يتحدد عدد الركعات التى صلاها الرسول ﷺ على سبيل اليقين .

ونقل أنه صلى فى الليلتين عشرين ركعة فى كل ليلة . والمتأكد أنه صلى من غير تحديد للعدد .

وجاءت رواية مالك أنه صلى بهم ثمان ركعات والوتر .

وجاء فى حديث عائشة : أنه ﷺ ما كان يزيد فى صلاة الليل على إحدى عشرة ركعة فى رمضان وغيره .

وقد أمر عمر تميما الدارى وأبى بن كعب أن يقوما بالناس بعشرين ركعة ويوترا بثلاث .

وفى رواية بثلاث وعشرين .

وروى أيضاً : أن عليا رضى الله عنه كان يؤم الناس بعشرين ركعة ويوتر بثلاث .

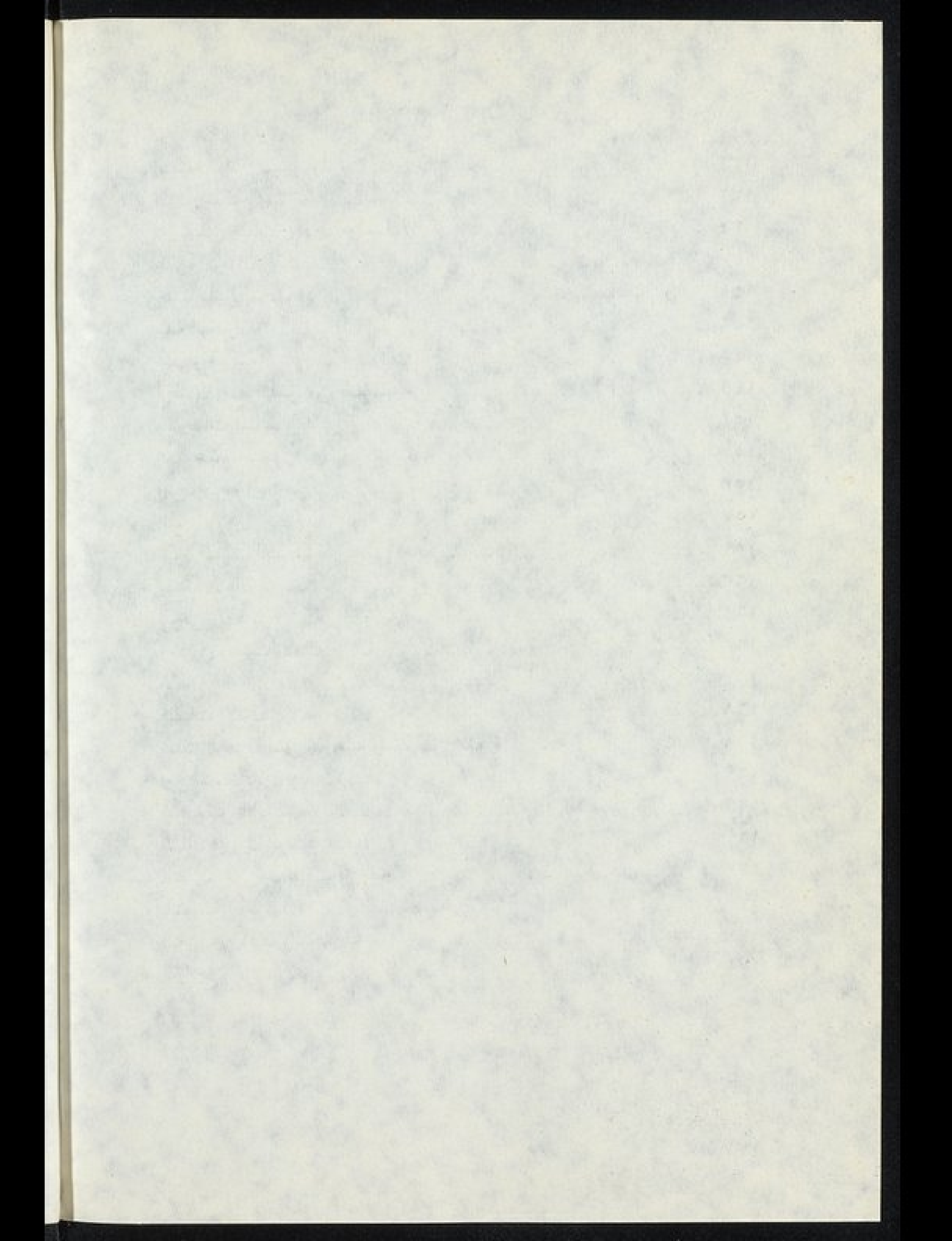
وكان الناس قبل عمر يصلى-الرجل لنفسه منفرداً أو يصلى الرجل بصلاة أخيه كما كانوا فى عصر النبوة .
والبدعة الحسنة التى سنها عمر هى أداؤها عشرين ركعة فى المسجد مع الإمام الذى يجتمع الناس عليه . والمحافظة على ذلك كما نؤديها نحن الآن . وقد وافق عمر على ذلك بقية الصحابة ـ ولم يوجد مخالف ممن بعدهم من الخلفاء الراشدين . وقد قال ﷺ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ » .
وقد سئل أبو حنيفة عما فعله عمر فقال : إن التراويح سنة مؤكدة ولم يتخرجه عمر من تلقاء نفسه ولم يكن فيه مبتدعاً ولم يأمر به إلا من أصل لديه وعهد من رسول الله ﷺ .
وقد سميت تراويح لما أخرجه البيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلى أربع ركعات فى الليل ثم يتروح فأطال حتى رحمته .
ثم زاد عددها بعد ذلك عمر بن عبد العزيز فكانت ستا وثلاثين ركعة . وكان قصده من هذه الزيادة مساواة أهل مكة فى الفضل لأنهم كانوا يطوفون بالبيت بعد كل أربع ركعات مرة ، فرأى رضوان الله عليه أن يصلى بدل كل طواف أربع ركعات .
وقت التراويح : وقت أدائها بعد صلاة العشاء إلى الفجر . ويصح أداؤها قبل الوتر وبعده . والأفضل أن تكون قبله . والأحسن التسليم بعد كل ركعتين .
مكان صلاة التراويح : وصلاتها فى المنازل جائز ـ والأفضل أداؤها فى المساجد لأن كل ماشرعت فيه الجماعة ففعله فى المساجد أفضل .
وهكذا كان عمر رضى الله تعالى عنه أول من سن قيام شهر رمضان بهذه الكيفية وكتب بها إلى البلدان فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين من الهجرة .
وجعل للناس فى المدينة قارئين : كان أحدهما يصلى بالرجال والآخر يصلى بالنساء .
فكان هذا المظهر بشعائره فى شهر رمضان فى كل عام فى بيوت الله عز وجل من أجمل مظاهـر العبادة وأكمل شعائر الاسلام التى يظهر بها المسلمون فى بيوت الله تعالى ضيوفاً على ربهم راكعين ساجدين قارئين ، من أقرب القربات فى طاعة الرحمن فى رمضان .
وكـذلـك يتذكر المسلمون وهم يذكرون ربهم فى صلاتهم وقيامهم أمير المؤمنين الخليفة الثانى الذى بقيت على الزمن أمجاده وخطر على القلوب كلما اتجهت إلى الله الخالق القادر اسمه .
استغفر الله أن يكون ذكره فى هذا الموقف من كل مسلم فى كل ركعة فى رمضان

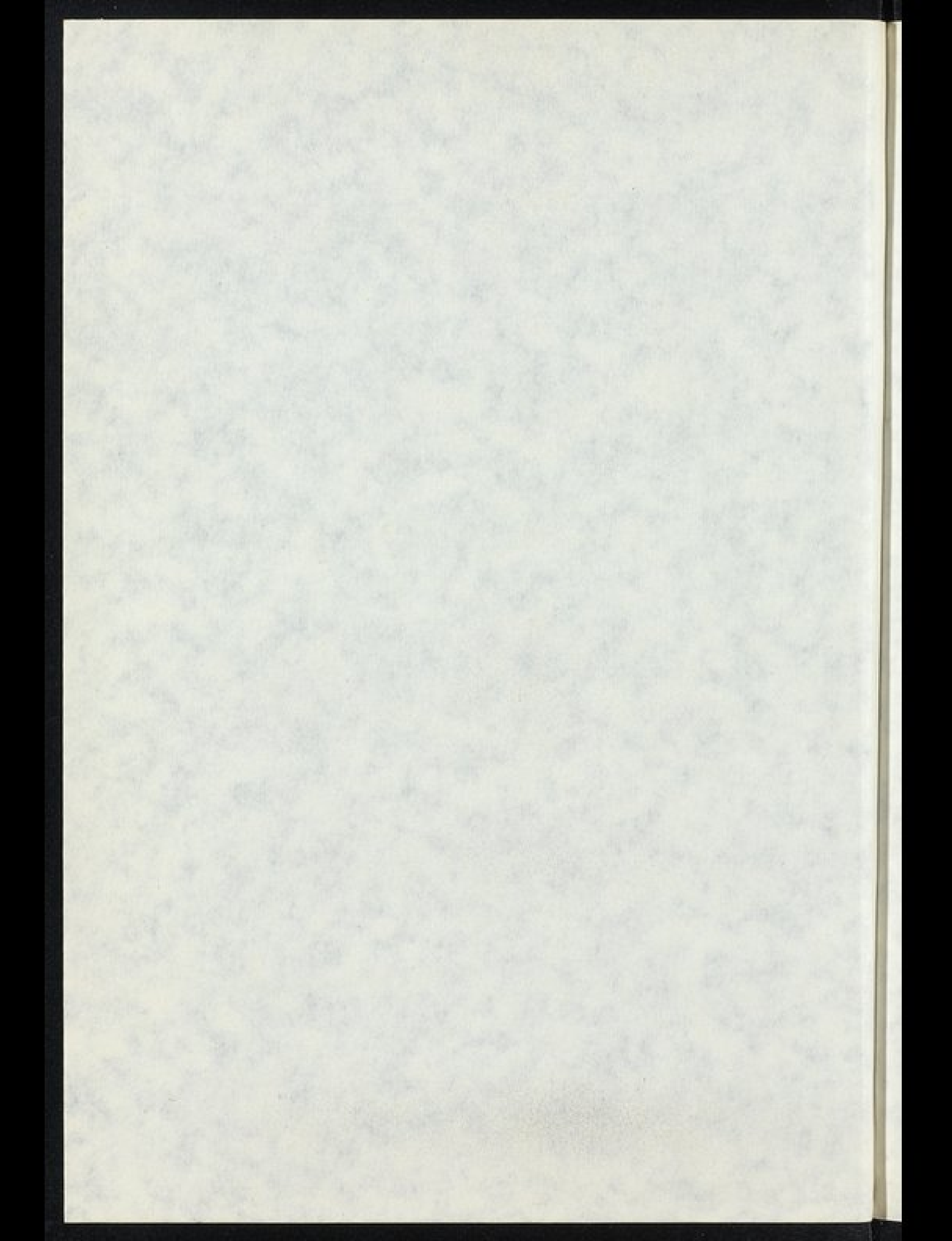
يأتى على المسلمين إلا تذكر الداعى إلى الله المتفانى فى دينه الملهم بنور الله ـ وهو نور الايمان الذى خالطت بشاشته قلبه الكبير .

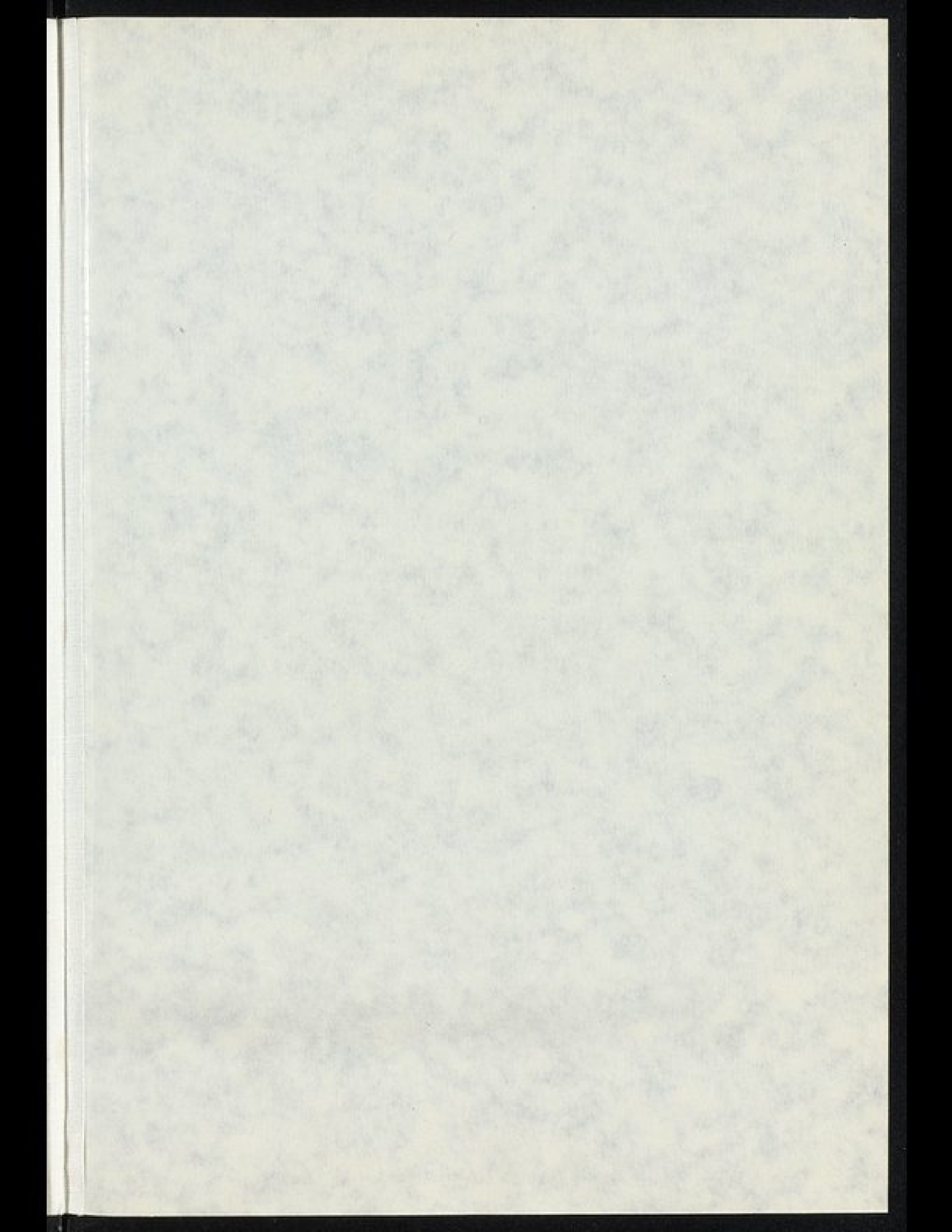
ومنذ نظم عمر صلاة التراويح فى شهر القرآن . والمساجد تتلألأ فيها الأنوار ، وتتجاوب فيها أصوات الراكعين الساجدين المسبحين لله بالصورة الكريمة التى كانت تتكون من اجتماع المسلمين فى بيوت الله ، ترتفع أصواتهم بذكر ربهم . فيهتدى بسماعها المؤمنون وتنبض قلوبهم بذكر الله .

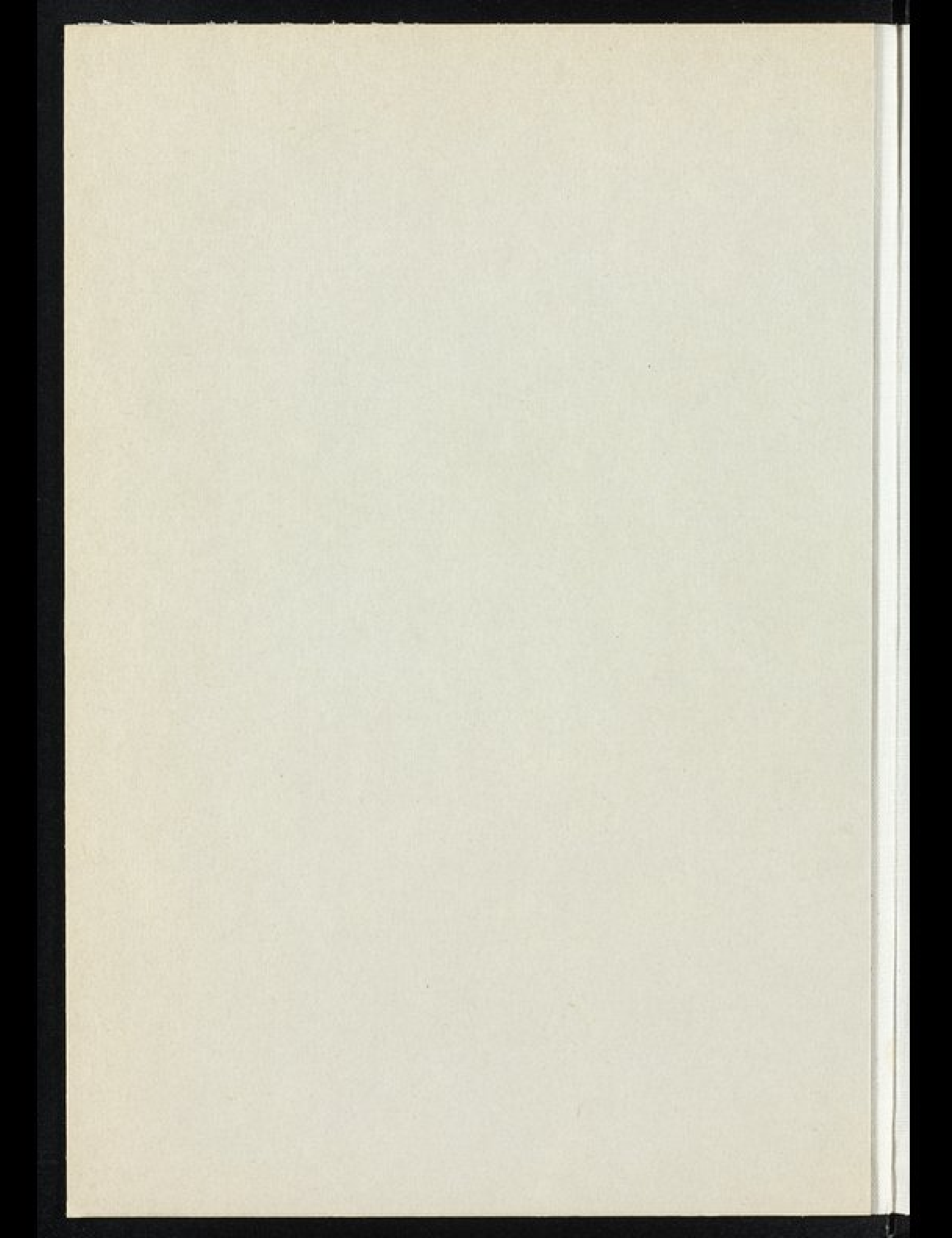
المحتـــوى

الصفحة









يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

مطابع يوسف بيضون
هاتف - ٤٦٠٧٤٣ - ٨٣٧٦٦٧ - بيروت . لبنان